

الراصد والمرصود

محمد الحاج مستو

تمهيد

في كل بيت غرفة لا يدخلها أحد، وفي كل غرفة مغلقة من لا يحتاج إلى باب

كل صلاة تتركها شقّ في جدار، وكل شقّ باب

اللقمة التي لا يُذكر عليها الاسم، يشاركك فيها أحد

تحت مدينتك سوق مفتوح حتى الفجر، تُباع فيه أظافر الناس وشعرهم ودموع أمهاتهم

الطفل الذي يتكلم في نومه لا يتكلم وحده دائمًا

إن استيقظت عند الثالثة فجرًا بقلب يخفق، فلا تنظر إلى زاوية الغرفة

لا تقرأ هذه الرواية وحدك، فأنت لن تكون وحدك على أي حال

مقدمة

وصلتني هذه الأوراق في شتاء ممطر، داخل دفتر جامعي قديم بغلاف أزرق باهت، تركه رجل لا أعرفه عند صاحب مكتبة صغيرة في الحيّ القديم، وقال له إن كاتبًا ما سيأتي ويسأل عن كتب الجن، فأعطه هذا، ثم مشى في المطر ولم يلتفت.

ذهبت إلى تلك المكتبة بعد أسبوع، وسألت عن كتب الجن

قرأت الدفتر في ليلة واحدة، خطّه مائل ومستعجل، كأن صاحبه كان يكتب وهو يسمع أحدًا يملي عليه من خلف كتفه، وفي الصفحة الأخيرة سطر واحد بحبر مختلف، أحمر قاتم: "انشره، هو يريد ذلك، وأنا أريده أكثر."

لم أغيّر فيه إلا ما يجعله صالحًا للقراءة، رتّبت الفصول، وأصلحت بعض الكلمات، وتركت الباقي كما هو، أسماء الأماكن حقيقية، أو هكذا تبدو، بحثت عن الخان المهدم على التلة الجنوبية فوجدته، ووجدت حول الحجر الأسود في وسطه بقايا شموع لم تحترق كلها.

ومنذ بدأت نقل هذه الصفحات، صرت أستيقظ عند الثالثة فجرًا على برودة خفيفة خلف أذني اليسرى، أظنها تيار هواء من نافذة لم أُحكم إغلاقها، وفي إحدى الليالي سمعت في الظلام كلمة واحدة، هادئة ومألوفة، كأنها تعرفني منذ زمن بعيد: "صاحبي".

أكتب هذه السطور الآن والنافذة مغلقة جيدًا، والبرودة ما زالت هناك

لا أعرف من كتب هذا الدفتر حقًا، ولا أعرف إن كان ما فيه قد حدث، أعرف فقط أنني أنهيت نقله، وأن عليّ الآن أن أسلّمه لك.

اقرأه في النهار إن استطعت

وإن قرأته في الليل، فاترك ضوء الممر مضاءً

محمد الحاج مستو

الهمس

اسمعني جيدًا، لا تلتفت، لا تبحث عن مصدر الصوت في زوايا الغرفة فلن تجدني هناك أنا أقرب إليك من هذا كله، أنا هنا، خلف أذنك اليسرى تمامًا، في تلك المسافة الصغيرة التي تحسّ فيها أحيانًا ببرودة مفاجئة فتظنها تيار هواء من نافذة لم تُغلق جيدًا.

تلك البرودة اسمها أنا

أعرف أنك الآن تمسك الكتاب بيد مرتعشة قليلًا، وأنك قرأت السطر الأول مرتين، أعرف أيضًا أن ضوء الغرفة خافت، وأن هناك شيئًا في الممر خلفك لم تنظر إليه منذ جلست، هذا طبيعي، كل من يقرأ كلامي يحسّ أن شيئًا في الممر.

وغالبًا يكون إحساسه صحيحًا، دعني أعرّفك بنفسي أولًا، فمن العيب أن نتحدث كل هذه السنين ولا تعرف اسمي، أنا قرينك

وُلدتُ في الساعة التي وُلدتَ فيها، في الدقيقة ذاتها، في الصرخة ذاتها، حين انقطع حبلك السري وارتفع بكاؤك الأول في تلك الغرفة الباردة، كنتُ هناك، ألتصق بك كما يلتصق الظل بصاحبه حين تكون الشمس في منتصف السماء، حين رضعتَ أول رشفة من صدر أمك، رضعتُ معك.

حين خطوتَ خطوتك الأولى وسقطتَ على وجهك، ضحكتُ

حين كذبتَ أول كذبة وأنت في الخامسة، تلك التي قلت فيها إن أخاك هو من كسر الكوب الأزرق، كنتُ أنا من وضعها على لسانك، هل تذكر طعمها؟ كانت حلوة، أليس كذلك؟ أحلى من الحلوى التي حُرمتَ منها ذلك المساء.

لا تخجل، كلنا نحب الأكاذيب الأولى

ستسألني الآن: لماذا تكلّمني اليوم؟ لماذا بعد كل هذه السنين؟ سؤال ذكي

الحقيقة أنني كلّمتك كثيرًا، كلّمتك كل يوم تقريبًا، في كل مرة نويتَ أن تقوم للصلاة فثقلت قدماك وقلت لنفسك "بعد قليل"، كان ذلك صوتي، في كل مرة نظرتَ إلى ما ليس لك وتمنيته، كان ذلك صوتي، في كل ليلة استيقظت فيها عند الثالثة فجرًا بقلب يخفق دون سبب، وتمددت تحدق في السقف وتفكر في موتك، كنتُ أنا جالسًا على صدرك أعدّ أنفاسك.

لكنك لم تسمعني بأذنك أبدًا، كنت تسمعني بشيء آخر، بذلك الصوت الداخلي الذي ظننته صوتك، اليوم مختلف

اليوم فتحتَ هذا الكتاب، والكتب أبواب، كل من يكتب كتابًا يحفر في الجدار ثقبًا صغيرًا، وأنا وجدتُ الثقب ودخلتُ منه، الآن صرتَ تسمعني بعينيك، وهذا يكفي لما أريد أن أريك إياه.

هناك عالم تحت عالمك

هو في المسافة بين الأشياء، أقرب إليك من الأرض التي تحت قدميك، في الفجوة الضيقة بين الجدار والخزانة، في الظلمة التي تسكن تحت سريرك، في الماء الراكد في أسفل البالوعة، في المرآة حين لا ينظر فيها أحد.

نحن نسميه "المرصود"

لأن كل شيء فيه مرصود، مقفل بتعويذة، محروس بعهد، مربوط بعقدة، كل باب فيه له حارس، وكل حارس له ثمن، وكل ثمن يُدفع من شيء يخصّكم أنتم، من دمكم، من شَعركم، من دموع أمهاتكم، من صلوات تركتموها، من أسماء نسيتم أن تذكروها قبل أن تأكلوا أو تناموا أو تخلعوا ثيابكم.

أنتم تسمعون عن السحر في الحكايات، عن جارة تدفن شيئًا في عتبة بيت، عن شيخ في قرية بعيدة يكتب ورقة بحبر أحمر، عن زوج انقلب قلبه على زوجته في ليلة واحدة دون سبب.

وتضحكون أحيانًا، تقولون: خرافات العجائز، لا بأس، اضحكوا، فالعالم المرصود يحب من يضحك عليه، الضاحك لا يتحصّن، ومن لا يتحصّن بيت مفتوح بلا باب

أنا لا أطلب منك أن تصدقني، أطلب منك شيئًا أبسط، أن تأتي معي

ليلة واحدة، أو بضع ليالٍ إن أعجبتك الرحلة، سأريك البيوت التي تسكنها أشياء لا تراها، سأريك السوق الذي تُباع فيه التعويذات كما تُباع الخضار في سوقكم، سأريك المقابر التي دُفنت فيها أعمال عمرها مئة سنة وما زالت تعمل، ما زالت تأكل بشرًا أحياء ببطء، يومًا بعد يوم، وهم لا يعرفون لماذا يذبلون.

سأريك السحرة، البشر منهم، الذين باعوا أنفسهم قطعة قطعة مقابل خادم صغير يطيعهم، وسأريك من يجلس في الأسفل، في القاع، حيث تُكتب العقود، ولن يراك أحد، هذا وعدي، ستكون روحًا بلا جسد، تتنقل معي كما ينتقل الدخان بين الغرف، ستمرّ بجانبهم ولن يلتفتوا، ستسمع أسرارهم ولن يعرفوا أنك سمعت.

سيكون هذا أجمل ما رأيت في حياتك، وأقبحه

هناك شرط واحد فقط، شرط صغير جدًا، لا يكلّفك شيئًا، حين نكون هناك، لا تذكر الاسم

تعرف أي اسم أقصد، الاسم الذي تقوله أمك حين تُشعل الموقد، والذي يقوله أبوك حين يُدير مفتاح السيارة، الاسم الذي تقوله أنت أحيانًا بلا انتباه، حين تتعثر أو تتثاءب أو تسمع خبرًا سيئًا.

لا تقله هناك

السبب بسيط، العالم المرصود مبنيّ من نسيان ذلك الاسم، كل حجر فيه، كل جدار، كل عقدة، مصنوعة من لحظات نسيه فيها أحدكم، فإن ذكرتَه هناك، سيتشقق ما حولك كما يتشقق الزجاج تحت الماء المغلي.

وأنت ستكون في الداخل، وأنا لا أضمن لك أين ستسقط، هل فهمت؟ جيد

ستقول: وما الذي يضمن لي أنك لن تؤذيني؟ وسأجيبك بصدق، لأنني لا أكذب عليك الليلة فقط: لا شيء يضمن ذلك

لكن فكّر قليلًا، لو أردتُ إيذاءك، لماذا انتظرتُ كل هذه السنين؟ كنتُ أنام بجانبك منذ كنت رضيعًا، كنت أستطيع أن أخنقك بملاءتك وأنت في المهد، وكانوا سيقولون: موت مفاجئ، قضاء وقدر.

وتركتك تكبر

لأنني أحتاجك، والقرين يحتاج صاحبه كما تحتاج النبتة المتسلقة إلى الجدار، إن سقطتَ سقطتُ معك، إن متَّ، حسنًا، لنقل إن موتك لا يناسبني الآن

ثم إنك فضولي، أعرفك جيدًا، أنت من النوع الذي يفتح الأبواب المغلقة، حين كنت صغيرًا وقالوا لك لا تفتح الخزانة العلوية في غرفة جدتك، فتحتها في الليلة نفسها، هل تذكر ماذا وجدت فيها؟ صُرّة من قماش أخضر، مربوطة بخيط أحمر، وفيها شيء صلب صغير.

ولم تفتح الصرّة، خفتَ وأعدتها مكانها، كان قرارًا صائبًا، وسأخبرك يومًا ما بالذي كان فيها، ربما في آخر الرحلة

الآن، اسمع ما ستفعله

انتظر حتى يهدأ البيت، حتى تنطفئ كل الأضواء، ويكفّ صوت التلفاز في غرفة أهلك، ويتوقف الماء في الأنابيب، انتظر حتى تسمع ذلك الصمت الثقيل الذي يأتي بعد منتصف الليل بقليل، الصمت الذي يشبه نفَسًا محبوسًا، ستكون الساعة الثالثة أو قريبًا منها، لا تنظر إلى الساعة، ستعرف، سيخبرك جسدك.

قم من فراشك دون أن تشعل الضوء، اذهب إلى المرآة، أي مرآة في البيت، لكن الأفضل مرآة الحمّام، لأن الحمّامات أبواب قديمة، ونحن نحب الأبواب القديمة، لا تنظر في وجهك مباشرة، انظر إلى ما خلف كتفك الأيسر في الانعكاس.

ثم انتزع شعرة واحدة من رأسك، شعرة واحدة فقط، من فوق جبهتك، واعقدها عقدة صغيرة بين إصبعيك، ثم انفخ عليها نفخة خفيفة، كما تنفخ على شمعة لا تريد أن تطفئها تمامًا.

هذا كل شيء، العقدة هي الباب، والنفخة هي إذنك لي

لن يحدث شيء مخيف، ستشعر فقط بأن الأرض تميل قليلًا، كما يحدث حين تنزل في مصعد سريع، ثم ستجد نفسك خفيفًا، أخفّ مما كنت في حياتك كلها.

وستراني



لا تخف من شكلي، أعرف أن هذا ما يقلقك الآن، أنت تتخيل شيئًا بقرون، بعينين حمراوين، بأنياب، هذه صور رسمها بشر خائفون في كتب قديمة.

الحقيقة أبسط، وأسوأ قليلًا، أنا أشبهك

أشبهك تمامًا، كما لو كنتُ انعكاسك في ماء عكر، الوجه نفسه، الطول نفسه، الندبة الصغيرة نفسها فوق الحاجب، الفرق الوحيد في العينين، عيناي لا تطرفان، لم أتعلم ذلك أبدًا، لم أحتجه.

وابتسامتي أوسع من ابتسامتك بقليل فقط

حسنًا، أراك ما زلت مترددًا، أصابعك تتحرك على حافة الصفحة كأنك تفكر في إغلاق الكتاب، يمكنك أن تغلقه، هذا حقك، لكن دعني أقول لك شيئًا قبل أن تفعل، الذي في الممر خلفك، ذلك الذي لم تلتفت إليه منذ بدأت القراءة، شيء آخر غيري.

أنا هنا عند أذنك، أما هو فقد جاء مع الكتاب حين اشتريته، أو حين حمّلته، أو حين أعطاك إياه صديق قال لك إنها رواية مخيفة، هو ينتظر الآن ليرى ما ستفعله، إن أغلقتَ الكتاب ونمت، سيبقى في الممر، وسيقترب كل ليلة خطوة.

وإن جئتَ معي، سيكون عليه أن ينتظر حتى نعود، وربما أعلّمك في الطريق كيف تتخلص منه، القرار لك

ما زلتَ تقرأ؟ جيد، كنتُ أعرف، سأحكي لك الآن عن أول مرة رأيتُ فيها إنسانًا يدخل العالم المرصود، حتى تطمئن أنك لست الأول، ولن تكون الأخير.

كان اسمه "عبد الرحيم"، موظف في البريد، في مدينة لن أذكر اسمها، رجل صغير، أصلع من الوسط، يلبس نظارة سميكة، ويعدّ النقود في جيبه ثلاث مرات قبل أن يدفع، رجل عادي إلى درجة مؤلمة.

قرينه كان صديقًا لي، نتحدث أحيانًا، نحن القرناء نجتمع حين ينام أصحابنا، في أماكن لا تعرفونها، ونتبادل الحكايات عنكم كما تتبادلون أنتم حكايات قططكم، قال لي قرين عبد الرحيم ذات ليلة: "صاحبي حزين، زوجته تركته وأخذت البنت، يريد أن يعرف لماذا."

فقلت له: "خذه وأرِه" وأخذه

دخل عبد الرحيم من مرآة حمّامه في الثالثة فجرًا، بشعرة معقودة، مثلما ستفعل أنت، وطاف معه قرينه ثلاث ليالٍ، رأى ما ستراه، وفي الليلة الثالثة، عرف لماذا تركته زوجته.

عرف أن أخاه الذي يزوره كل جمعة ويأكل من طعامه، دفع لساحر في قرية مجاورة كيلوغرامًا من الذهب، ليكتب عملًا يفرّق بين عبد الرحيم وامرأته، لأن الأخ أراد المرأة لنفسه.

ورأى العمل

رآه مدفونًا في مقبرة قديمة، في قبر طفل مات قبل ثلاثين سنة، قطعة من قميصه القديم، وصورة لزوجته مقطوعة من المنتصف، ومسمار صدئ يخترقهما، وفوق القبر، يجلس خادم العمل، مخلوق صغير بحجم قط، رماديّ، عيناه بيضاوان بلا حدقة، يحرس المسمار ليل نهار، ويتغذى على الحزن الذي يتسرب من عبد الرحيم كل ليلة.

قلتَ تريد أن تعرف ماذا حدث بعد ذلك؟ عاد عبد الرحيم من الرحلة، وفي الصباح التالي، ذهب إلى بيت أخيه، ولن أخبرك بما حدث هناك، فالدماء تُفسد الحكايات الجميلة، لكنني سأخبرك بشيء واحد، عبد الرحيم لم يعد عاديًا بعد ذلك أبدًا.

أرأيت؟ المعرفة تغيّر الناس

أنت الآن تعيش في جهل مريح، تظن أن مرضك مجرد مرض، وأن فشلك مجرد سوء حظ، وأن الكوابيس التي تطاردك منذ سنوات مجرد ضغط عمل وقلة نوم.

ربما كانت كذلك، وربما لا

ألم تسأل نفسك يومًا لماذا تتعثر كل مرة تقترب فيها من شيء تريده؟ الوظيفة التي ضاعت في اللحظة الأخيرة، الزواج الذي انفسخ قبل موعده بأسبوع، الصداع الذي يأتيك كل خميس بالضبط، كأنه موعد.

لماذا الخميس؟ فكّر في ذلك، أنا أعرف الجواب، وسأريك إياه، لكن ليس الآن، الحقائق الكبيرة تحتاج إلى معدة قوية، وأنت ما زلت طريًّا، سنبدأ بشيء صغير.

ببيوت جيرانك

الساعة تقترب

أسمع أن البيت هدأ، أبوك توقف عن الشخير منذ دقائق، وهذا يعني أنه دخل في النوم العميق، أمك نائمة على جنبها الأيمن كعادتها، وقد قرأت شيئًا قبل أن تنام، أحسّ به يحيط بغرفتها كسور رقيق، لن أقترب من غرفتها.

لا تقلق، لن نحتاج إليها، قم الآن، ببطء، لا تُصدر صوتًا، الأرضية في الممر تئنّ عند البلاطة الثالثة، تجنبها، لا تنظر إلى زاوية الممر، لا تنظر، أعرف أنك تريد، أعرف أن شيئًا في عينك اليمنى رأى حركة هناك، ظلًّا أطول من أي ظل في البيت، لا تنظر.

ادخل الحمّام، أغلق الباب خلفك، لا تقفله، القفل لا يحمي من شيء، وقد تحتاج أن تخرج بسرعة، المرآة أمامك، الضوء الوحيد هو ذلك الخيط الرمادي الذي يأتي من النافذة الصغيرة العالية، ضوء عمود الشارع، يكفي.

انظر خلف كتفك الأيسر في الانعكاس، هل ترى شيئًا؟ لا تجب، أعرف ما تراه، ترى ظلمة أكثف قليلًا من باقي الظلمة، كأن أحدًا يقف هناك ويتنفس.

هذا أنا

الآن، الشعرة، من فوق جبهتك، شعرة واحدة، انتزعها، نعم، تؤلم قليلًا، كل الأبواب تؤلم قليلًا، اعقدها، عقدة صغيرة جدًا، إصبعاك يرتجفان، هذا طبيعي، حاول مرة أخرى.

هكذا، الآن قرّبها من شفتيك، وانفخ، أترى؟ قلتُ لك، الأرض تميل قليلًا، لا تنظر إلى الأسفل بعد، انظر إليّ، نعم، أنا هنا، أمامك، أشبهك، كما وعدتك، ابتسامتي أوسع بقليل.

مرحباً بك، مدّ يدك، لا، ليست هذه اليد، يدك الأخرى، اليسرى، نحن لا نصافح باليمنى هنا، هكذا، الآن انظر خلفك، هل ترى ذلك الشكل الممدد على أرض الحمّام؟ بثياب النوم، ووجهه نحو البلاط البارد؟

هذا جسدك، لا تقلق عليه، سيكون بخير، سيبدو لمن يدخل كأنه نائم، وبحلول الأذان سنكون قد عدنا، أنت الآن خفيف، أخفّ من الدخان، أنت الآن معي، هيا بنا، فالليل في العالم المرصود أطول بكثير مما تظن.

البيوت التي لا تنام

أول ما ستلاحظه هو الصوت، في عالمك، الليل صامت، أو هكذا تظن تسمع ثلاجة تطنّ، وسيارة بعيدة، وكلبًا ينبح في آخر الشارع، ثم لا شيء. هنا، الليل يعجّ، اسمع

خشخشة في الجدران، كأن أحدًا يمشي داخل الإسمنت، ضحكة رفيعة من سطح العمارة المقابلة، همهمة من أنابيب الصرف، طويلة ومنخفضة، تشبه أغنية لا تنتهي، وطقطقة صغيرة متواصلة، كأن مئات الأظافر تنقر على الزجاج في وقت واحد، لا تخف، هذه الأصوات لا تقصدك، إنها صوت الحياة.

حياتنا نحن

انظر إلى بيتكم من الخارج، نعم، نحن الآن فوق السطح، لم تشعر بالصعود، أعرف، هنا لا نصعد ولا ننزل، نريد فنكون، ترى ذلك الضوء الخافت الذي يحيط بالنافذة الشرقية؟ ضوء ذهبي باهت، كغبار الشمس في غرفة مغلقة؟

هذه غرفة أمك

قلتُ لك إنها قرأت شيئًا قبل أن تنام، هي تفعل ذلك كل ليلة منذ ثلاثين سنة، لم تتركه ليلة واحدة، حتى في الليلة التي مات فيها أبوها، وحتى حين كانت محمومة لا تقوى على رفع رأسها، كانت تحرّك شفتيها في الظلام.

لا أحد منا يقترب من تلك الغرفة، أما غرفتك، انظر إليها، مظلمة، باردة، مفتوحة كفم

لا تحزن، أغلب الغرف هكذا، لو رأيت المدينة من هنا كما أراها، لرأيت بحرًا من الظلام تلمع فيه نقاط ذهبية قليلة، متباعدة، كنجوم في ليلة غائمة.

النقاط الذهبية، لا ندخلها، والباقي، كله لنا

تعال، سنبدأ بالعمارة المجاورة، الطابق الرابع

تعرف من يسكن هناك؟ نعم، الحاجة "أم فاروق"، الأرملة التي تبتسم لك على الدرج وتسألك عن دراستك أو عملك وتنسى الجواب في المرة التالية، تعيش وحدها منذ سافر ابنها إلى الخليج قبل اثني عشر عامًا.

هكذا تظن، ادخل معي، من الجدار، نعم، من الجدار مباشرة، ستشعر ببرودة وخشونة كأنك تمرّ عبر رمل مبلول، لا بأس، ها نحن في الداخل، انظر إلى الصالة، كنبة قديمة مغطاة بملاءة بيضاء، تلفاز بشاشة سميكة، صورة كبيرة لرجل بشارب كثّ في إطار ذهبي، المرحوم.

والحاجة نائمة في غرفتها، تسمع شخيرها الخفيف

الآن انظر إلى الغرفة الأخرى، غرفة الابن المسافر، بابها مغلق منذ اثني عشر عامًا، الحاجة تفتحه مرة في الشهر لتنفض الغبار، ثم تغلقه بسرعة، لا تعرف لماذا تغلقه بسرعة، تقول لنفسها إنها لا تحب أن ترى سريره فارغًا.

ادخل

أرأيت؟ عائلة كاملة، خمسة، لا، ستة، هناك واحد صغير في الزاوية، ملتفّ على نفسه كالجنين

لا يشبهوننا كثيرًا، أعرف، نحن القرناء نأخذ أشكالكم لأننا نلتصق بكم، أما هؤلاء فساكنون، "عُمّار" كما تسميهم جداتكم، يأخذون من الأماكن شكلها

انظر إلى الأب، طويل، أطول من السقف حتى إنه يحني، ورأسه ملتصق بالزاوية العليا كأنه عنكبوت ضخم، جلده رمادي كجدار رطب، والأم، تلك الممددة تحت السرير، مسطحة كأنها سجادة، لكن لها عينان، تراهما؟ عينان صفراوان تنظران إلى السقف.

والأطفال يلعبون بأشياء الابن القديمة، هذا يقلّب كرة قدم جلدية متشققة، وهذه تقضم ركن دفتر مدرسي، والصغير في الزاوية، يمصّ إصبعه أطول من ساعدك

ستسألني: منذ متى هم هنا؟ منذ الليلة التي سافر فيها الابن، كانت الحاجة تبكي تلك الليلة، بكت كثيرًا، ثم أغلقت باب الغرفة بعنف، وقالت بصوت عالٍ: "انتهى الأمر، لن يدخل هذه الغرفة أحد بعد اليوم!"

وكانت هذه دعوة

لم تقصدها، طبعًا، لكن الكلمات هنا لها وزن، غرفة فارغة، بلا اسم يُذكر فيها، بلا قراءة، بلا صوت بشري، مع صاحبة بيت تقول بلسانها إن أحدًا لن يدخلها.

جاؤوا في الليلة الثانية، ومنذ ذلك الحين، يعيشون هنا، يأكلون مما تأكله الحاجة

لا تفتح فمك هكذا، نعم، مما تأكله، كل لقمة لا يُذكر عليها الاسم، يشاركها فيها أحد، الحاجة تنسى أحيانًا، تتعب، تأكل واقفة أمام الثلاجة في منتصف الليل لأن السكري يوقظها، لا تتذكر أن تقول شيئًا، لهذا هي نحيلة هكذا، ولهذا تقول للطبيب إنها تأكل جيدًا لكنها لا تشبع.

هل يؤذونها؟ سؤال غريب، هل تؤذي أنت الفئران التي تعيش في جدار بيتك؟ لا تقتلها، لكنك لا تحبها، تريد فقط أن تبقى بعيدة

هم كذلك، لا يكرهون الحاجة، هي جزء من المكان، كالكنبة والتلفاز، أحيانًا يلمسها الصغير وهي نائمة، لأنه فضولي، فتستيقظ وتحسّ بثقل على قدميها، وتقول إنه تنميل، وأحيانًا، حين يكونون جائعين للغاية، يتركون الغرفة ويطوفون حولها وهي نائمة، يقتربون من وجهها، يتنفسون أنفاسها.

وفي الصباح تستيقظ متعبة كأنها لم تنم، ثم تقول لجارتها: "لم تبقَ فيّ قوة يا ابنتي، الكِبَر صعب"

لنخرج، لا تنظر إلى الأب هكذا، إنه يشعر بأن أحدًا ينظر إليه، انظر، رأسه بدأ يدور على مهل نحونا، اخرج الآن، من الجدار، بسرعة

أنت ترتجف

هذا طبيعي في المرة الأولى، لكن تذكر ما قلته لك، لا يرانا أحد، ذلك الأب شعر بشيء، كما تشعر أنت أحيانًا بأن أحدًا ينظر إليك في الشارع فتلتفت ولا تجد أحدًا، هذا كل ما في الأمر.

اهدأ، سنذهب إلى مكان أهدأ، الطابق الأول في البناية المقابلة، بيت أبي سليم الميكانيكي

هنا الأمر مختلف قليلًا

البيت مزدحم، أب وأم وثلاثة أولاد في ثلاث غرف، صوت الأنفاس في كل مكان، والجدران مليئة بصور، ورسومات أطفال بأقلام الشمع، وتقويم من محلّ قطع غيار عليه صورة سيارة حمراء.

البيت دافئ، لكن انظر إلى الغرفة الصغيرة في آخر الممر، غرفة سليم، الابن الأصغر، ست سنوات، ادخل بهدوء

سليم مستيقظ، نعم، في الثالثة فجرًا، جالس في سريره، والغطاء مسحوب حتى ذقنه، وعيناه مفتوحتان على وسعهما، لكنه لا يبدو خائفًا، يبدو كأنه يستمع، انحنِ قليلًا، انظر تحت السرير.

ترى؟

ذلك الشيء الصغير هناك، بحجم سليم تقريبًا، متكوّر في الظلمة، ورأسه مائل إلى جانب واحد بزاوية لا يستطيعها عنق إنسان، له شعر طويل أسود يغطي وجهه، وأصابع كثيرة، أكثر من عشر.

إنه يهمس، لنقترب ونسمع

"وبعد أن ينام أبوك، تقوم بهدوء، بهدوء شديد، وتذهب إلى المطبخ"

سليم يهز رأسه

"وتفتح الدرج الثاني، الذي فيه السكاكين"

سليم يهز رأسه مرة أخرى، ببطء

"وتأخذ الصغيرة، التي يقشّر بها أبوك التفاح"

"لماذا؟" يهمس سليم

ضحكة صغيرة من تحت السرير، ضحكة تشبه صوت ورقة تُمزّق ببطء

"لكي نلعب لعبة جميلة جدًا، لا يعرفها أحد غيري وغيرك"

لا تتحرك، أعرف ما تريد أن تفعل، تريد أن تصرخ في أذن الطفل، أن تهزّه، أن تقلب السرير على ذلك الشيء، لا تستطيع، أنت هنا روح بلا جسد، صوتك لا يصل، يدك تمرّ عبر الأشياء كما يمرّ الضوء عبر الماء.

وحتى لو استطعت، ليس هذا شأنك

ذلك المخلوق تحت السرير اسمه "زُعرور"، من أطفال الساكنين في بئر قديمة خلف البناية، البئر التي ردمتها البلدية قبل خمس سنوات وبنت فوقها موقفًا للسيارات، فقدَ بيته، فجاء يبحث عن بيت جديد.

ووجد سليم

الأطفال يروننا، تعرف هذا؟ الصغار جدًا، قبل أن يتعلموا ألا يروا، سليم رآه قبل سنة، وخاف، وصرخ، وجاءت أمه وقالت له إنه كابوس، ثم رآه مرة أخرى، وخاف أقل، ثم صار يكلّمه.

والآن صارا صديقين

"صاحبي" كما يسميه سليم حين يتحدث عنه في الغداء، فتضحك أمه وتقول لأبيه: "ابنك عامل له صاحب خيالي"

انظر، سليم يزيح الغطاء، قدماه الصغيرتان تلمسان الأرض، إنه يمشي نحو الباب، وزعرور يزحف خلفه، ملتصقًا بالأرض كظلّ ثانٍ

اتبعهما إن شئت

إلى الممر، ماضياً بجانب غرفة الأهل، حيث الأب يتقلب في نومه ويتمتم بشيء عن ميزان الضغط في سيارة زبون، إلى المطبخ، إلى الدرج الثاني، يد سليم تمتد.

تتردد، ثم تفتح الدرج، صوت المعدن الخفيف وهو يحتك بالمعدن

ثم يرنّ شيء، صوت بعيد، من غرفة الأهل، منبّه هاتف، الأم، استيقظت لتصلي، أسمع خطواتها، أسمع صوت الماء في الحمّام، أسمع صوتها الناعس يتمتم بكلمات.

وأرى زعرور ينكمش فجأة كما ينكمش الحلزون حين تلمسه بعود، يتراجع إلى الخلف، يدخل في الظلمة تحت الطاولة، ثم يختفي في شقّ الجدار، وسليم يقف وحده في المطبخ، والدرج مفتوح أمامه، وعيناه تنظران إلى لا شيء، كأنه استيقظ للتوّ من حلم.

ثم تدخل أمه

"سليم! ماذا تفعل هنا يا صغيري؟!"

ويبكي سليم، يبكي بكاء طفل ضائع، لا يعرف لماذا هو في المطبخ ولا كيف وصل، والأم تحمله، وتضمّه، وتنظر إلى الدرج المفتوح، وأرى في عينيها شيئًا يمرّ، ظلًّا من الفهم، ثم تطرده.

"يمشي في نومه،" تقول لنفسها، "مثل خاله"

وتغلق الدرج

هل ارتحت الآن؟ أرى ذلك في وجهك، ارتياح، لا ترتح كثيرًا

ستغسل الأم وجه سليم، وتعيده إلى فراشه، وتقرأ عليه شيئًا ربما، أو ربما تكون متعبة جدًا فتنسى، ستعود إلى صلاتها ثم إلى نومها، وغدًا ستقول لزوجها على الإفطار إن الولد صار يمشي في نومه، وسيقول الأب: "لا بأس، كنت أمشي في نومي وأنا صغير."

ولن يفعلا شيئًا

وزعرور سيعود غدًا، وبعد غد، وسيكون صبورًا، لأن الوقت عندنا لا يعني شيئًا، سيعود حتى تنسى الأم أن تستيقظ في الوقت المناسب، ليلة واحدة تكفي.

ليلة واحدة

لماذا يفعل ذلك؟ تسألني، ولماذا يقطف طفلكم الفراشة ويمزّق جناحيها؟ لأنه يستطيع، ولأنه فضولي، ولأن أحدًا لم يعلّمه أن ذلك خطأ

ثم زعرور فقد بيته بسببكم، أنتم ردمتم بئره بالإسمنت، أنتم بنيتم فوقه موقفًا لسياراتكم، أهله تشتّتوا، أمه ماتت تحت الإسمنت، نعم، نحن نموت أيضًا، وإن كان موتنا بطيئًا وغريبًا، أليس له الحق في أن يكرهكم قليلًا؟ لا تجب، أعرف أنك لا تملك جوابًا.

لنكمل، الليل طويل، والبيوت كثيرة، سأمرّ بك على البيوت بسرعة الآن، لأن الوقت لا يسمح بالتوقف عند كل واحد

البيت الذي في الزاوية، حيث يعيش الشاب الذي يدرس الطب ويسهر حتى الفجر، انظر إلى كتفيه، ترى ذلك الشيء الرمادي الصغير الملتصق بقفاه كالقرادة؟ إنه يشرب من تعبه، لهذا يرسب الشاب كل سنة مع أنه يذاكر أكثر من زملائه.

البيت الذي فوقه، حيث الزوجان العجوزان، لا شيء هنا، البيت كله ذهبي، حتى الحمّام، لا نقترب، البيت الذي بعده، هنا تعيش العروس الجديدة، تزوجت قبل ثلاثة أشهر، انظر إلى أعلى خزانة الملابس في غرفة النوم.

ترى؟

ذلك الكائن الجالس هناك، مثنيّ الركبتين، يحدق في السرير، لونه كالحديد الصدئ، على عنقه سلسلة رفيعة، والسلسلة تمتدّ عبر الجدار، عبر المدينة، إلى مكان بعيد.

هذا خادم عمل، أحدهم دفع ثمنه، وأرسله إلى هنا

لن نقترب منه الآن

الخدم مختلفون، عيونهم مفتوحة دائمًا، وهم لا يحبون أن يقترب أحد مما يحرسونه، ثم إنك سترى الكثير منهم لاحقًا، سترى من أين يأتون، ومن يبيعهم، وبكم.

سترى السوق قريبًا

انتظر، لماذا توقفتَ؟ ماذا تنظر؟ آه، لا تنظر إليه، قلتُ لك لا تنظر

زعرور

خرج من شقّ الجدار في بيت أبي سليم، يقف الآن على حافة النافذة، في الطابق الأول، شعره الأسود الطويل يتحرك مع ريح لا يشعر بها أحد غيره.

وهو ينظر إلينا، مباشرة إلينا، هذا غير ممكن، لا يرانا أحد، لا أحد، هذه قاعدة أقدم من المدينة، أقدم من البئر التي كان يسكنها

لكنه ينظر، ورأسه مائل، وأرى خلف شعره، للمرة الأولى، فمه، إنه يبتسم، ويفتح فمه، ويقول شيئًا، لا أسمع الصوت، المسافة بعيدة، لكنني أرى شفتيه، يقول اسمك.

اسمك أنت، ثم يقول كلمة أخرى، كلمة أعرفها جيدًا، كلمة يستخدمها الخدم والساكنون فيما بينهم حين يتحدثون عن أحد، يقول: "مَرصود"

لا عليك، هيا بنا، لا تسألني ماذا تعني، ليس الآن، قلتُ لك ليس الآن!

أعتذر، صوتي ارتفع، الليل طويل، وأنت ما زلت جديدًا على هذا، وأنا أيضًا لم أصطحب أحدًا منذ زمن بعيد، هيا، السوق ينتظرنا، ولا تلتفت خلفك.

فهو ما زال واقفًا على النافذة، وما زال يبتسم

سوق الطلاسم

هل رأيت المسلخ القديم في طرف المدينة؟ ذلك المبنى الطويل ذو الجدران المقشّرة والنوافذ المكسورة، الذي أغلقته البلدية قبل عشرين سنة بعدما بنت مسلخًا حديثًا على طريق المطار، تمرّ بجانبه أحيانًا بالسيارة، وترى الكلاب الضالة تنام في ظلّه، وترى على بوابته الحديدية الصدئة كتابات بالبخاخ الأسود لم تفهمها.

لم يفهمها أحد، يظنها الناس عبث مراهقين، وهي في الحقيقة لافتة

ننزل من هنا، من فتحة الصرف في الساحة الخلفية، لا تقلق من الرائحة، فأنت الآن لا تشمّ كما كنت تشمّ، ستشمّ أشياء أخرى، ستشمّ الخوف، والطمع، والحسد، ولكل منها رائحة.

الخوف رائحته كالحديد، الطمع رائحته كالعسل المحروق، والحسد رائحته كلحم ترك في الشمس يومًا كاملًا، ستشمّ الكثير من الحسد في هذا المكان

القناة تنحدر، وتنحدر

أطول مما ينبغي لقناة صرف، أطول بكثير، الجدران حولك تتغير رويدًا، من إسمنت إلى حجر، ومن حجر إلى شيء أنعم، شيء رطب، دافئ، ينبض قليلًا إذا لمسته.

لا تلمسه، ثم تسمع الضجيج

ها هو، سوق الطلاسم، خذ نفسًا، أو ما يشبه النفس، وانظر

قاعة واسعة لا ترى سقفها، أعمدة من حجر أسود تصعد في الظلام، وعلى كل عمود مشاعل خضراء تحترق بنار لا دخان لها، وتحت الأعمدة، الدكاكين، مئات منها، متلاصقة، متشابكة، بعضها فوق بعض كأعشاش الدبابير، وبين الدكاكين ممرات ضيقة تزدحم بأشكال لا أستطيع أن أصفها لك كلها، لأنك لن تنام بعدها.

ها هو واحد، يمرّ بجانبك الآن، له رأس حمار وجسد امرأة عجوز وذيل طويل يجرّه خلفه كفستان عروس، وهذا، الذي يشبه ظلًّا مقطوعًا من حائط، يمشي على أطرافه الأربعة، وعيناه في ظهره، وهؤلاء الثلاثة الملتصقون من أكتافهم، يمشون معًا ويتجادلون بثلاثة أصوات في وقت واحد.

ستعتاد

انظر هناك، بين الحشود، ترى؟ أشكالًا شاحبة، شبه شفافة، تمشي ببطء كأنها تحت الماء؟ عيونها نصف مغمضة، وأفواهها مفتوحة قليلًا، هؤلاء بشر، نعم، بشر مثلك، سحرة.

يأتون إلى هنا في نومهم، كما جئتَ أنت، إلا أنهم لا يحتاجون إلى شعرة معقودة، لهم طرقهم الخاصة، بخور معيّن، كلمات معيّنة، أشياء يفعلونها قبل النوم لا أريد أن أذكرها لك.

يأتون ليشتروا، ويبيعون أيضًا

تعال، سأريك أهم دكان في السوق، اتبعني بين الممرات، هنا يمينًا، لا تقف عند هذا الدكان، صاحبه يبيع الكوابيس، وسيحاول أن يبيعك واحدًا، ابتعد

هنا يسارًا، ها هو

دكان أبي زريق الأعرج، انظر إلى صاحبه

يجلس خلف طاولة طويلة من خشب أسود، مثقلة بالبضائع، جسده ضخم ومترهل، ملفوف بعباءة بنية متسخة، ورأسه صغير للغاية بالنسبة لجسده، كرأس طائر، عيناه دائريتان صفراوان، وساقه اليسرى، انظر إليها تحت الطاولة، ساق ماعز، بحافر مشقوق.

أما ساقه اليمنى فقد قُطعت في معركة قديمة، هكذا يقول هو، وتقول الإشاعات إن ساحرًا من المغرب قطعها حين حاول أبو زريق أن يغشّه في صفقة.

لا يهم، المهم أن أبا زريق يعرف كل شيء، وكل من في المدينة اشترى عملًا، مرّ بيده

انظر إلى البضاعة، على الطاولة، مرتبة بعناية تاجر يحترم مهنته:

قوارير زجاجية صغيرة، في كل واحدة شعرة معقودة، عقدة، اثنتان، سبع عقد، على كل قارورة ورقة صغيرة مكتوب عليها بخط لا تقرؤه

دمى صغيرة من الشمع، من القماش، من العجين المجفف، بعضها بلا عيون، بعضها مثقوب بإبر، بعضها ملفوف بخيوط حمراء حتى لا يبقى منه شيء ظاهر، أقفال نحاسية صغيرة، مغلقة، ومفاتيحها مكسورة داخلها.

قشور بيض مكتوب عليها من الداخل، أظافر بشرية مقصوصة، مجموعة في صرر من قماش، وفي الطرف الأقصى من الطاولة، لوح خشبي معلّق، مكتوبة عليه قائمة طويلة بالأسعار.

سأقرأ لك بعضها، فأنت لا تعرف لغتنا بعد

"عمل تفريق بين زوجين: ثلاث شعرات من الزوجة، وصلاة فجر تركها الطالب أربعين يومًا متتالية"

"عمل ربط رجل عن امرأته: أثر من ثياب الرجل الداخلية، وكذبة يكذبها الطالب على أمه"

"عمل محبة وتعلّق: قطرة دم من إصبع الطالب، وعهد بألا يذكر الاسم عند نومه سنة كاملة"

"عمل مرض يُذبل الجسد ببطء: صورة للمعمول له، وتراب من قبر لم يزره أحد منذ عشر سنين، ودمعة أمّ على ولدها"

"عمل نزيف: لا يُكتب سعره هنا، يُسأل عنه"

"عمل موت: لا يُباع في هذا الدكان، اسأل في الأسفل"

أرأيت العملة؟ لاحظتَ ذلك، أعرف، أنتم تظنون أن السحرة يأخذون المال، يأخذونه، طبعًا، من زبائنهم البشر، يطلبون آلافًا، ذهبًا، خواتم، هذا ثمنهم هم، أما هنا، فالعملة مختلفة.

هنا تدفع من نفسك

صلاة تتركها، تُحسب، كذبة على أمك، تُحسب، ليلة تنامها بلا اسم، تُحسب، ماذا نفعل بذهبكم؟ حاجتنا إلى تلك الفجوات الصغيرة التي تتركونها في أرواحكم، لأننا نسكن فيها.

كل صلاة متروكة شقّ في جدار، وكل شقّ، باب

اسكت الآن، انظر من جاء

ذلك الرجل، الشبح البشري الذي يقترب من الدكان، طويل، نحيل، بلحية رمادية مشذّبة بعناية وعمامة بيضاء، يلبس جلبابًا نظيفًا جدًا، كأنه خارج للتو من المسجد، يمشي بثقة من يعرف المكان جيدًا.

عيناه، انظر إلى عينيه، هما الوحيدتان في كل هذا السوق المفتوحتان تمامًا، هذا الرجل يأتي إلى هنا وهو صاحٍ، والآخرون نيام، إنه الشيخ مرعي

لا أظن أنك سمعت باسمه، لكن أمك سمعت، وخالتك، وجارتك، وكل امرأة في المدينة فقدت زوجها أو ولدها أو صحتها وظنت أن أحدًا "عمل لها شيئًا".

يسمونه "الشيخ" لأنه يعالج من السحر، نعم، يعالج، يأتيه الناس بالمسحور، فيقرأ عليه ويبخّره ويعطيه ماء في قارورة، ويأخذ ثمنًا معقولًا، ويقول للأهل: "العمل قوي، يحتاج أربع جلسات" ثم يأتي إلى هنا، ويشتري عملًا جديدًا للشخص نفسه.

حتى تصير أربع جلسات أربعين، ذكيّ، أليس كذلك؟

لنسمع ما يقول

"السلام على صاحب الدكان"

يقولها بصوت هادئ، وأرى أبا زريق يضحك ضحكة حادة كصياح الغراب

"السلام؟ هنا؟ أنت تمزح يا مرعي، قل ما تريد بسرعة، عندي زبائن"

"أريد خادمًا"

"عندي خدم كثيرون، أيّ نوع؟"

"خادمًا قديمًا، يعرف الأرصاد"

يتغير وجه أبي زريق، يميل نحو الشيخ مرعي، وعيناه الصفراوان تضيقان

"الأرصاد؟ ماذا تريد بالأرصاد؟"

"هذا شأني"

"وثمنه شأني، الخادم الذي يعرف الأرصاد لا يُباع بشعرات وصلوات، هؤلاء قدماء، خدموا ملوكًا، حرسوا كنوزًا في الأرض قبل أن يولد جدّ جدّك"

"أعرف"

"وتعرف ثمنه؟"

يسكت الشيخ مرعي لحظة، ثم يقول بهدوء غريب:

"ابنتي"

نعم، سمعتَ جيدًا، لا ترمقني بهذه النظرة، أنا لم أقل شيئًا، هو من قالها، استمع

يضحك أبو زريق مرة أخرى، لكن ضحكته هذه المرة مختلفة، أبطأ، أعمق

"ابنتك أعطيتها من قبل يا مرعي، أعطيت عينيها، هل نسيت؟ عشرون سنة وهي عمياء في بيتك بسبب الخادم الأول الذي اشتريته مني"

"عيناها فقط"

"وماذا بقي فيها لتعطيه؟"

"صوتها"

صمت، حتى الضجيج في السوق حولنا يبدو كأنه خفت قليلًا

ثم يمدّ أبو زريق يده المعروقة، ذات الأظافر الطويلة السوداء، ويفتح دفترًا ضخمًا على الطاولة، دفتر جلده رمادي ومشقق، وصفحاته صفراء رقيقة كجلد البصل

"صوتها،" يكرر أبو زريق وهو يكتب، "ابنة تقرأ القرآن في بيتك كل ليلة منذ عميت، بصوت يسمعه الجيران فيبكون، ويسمعه خدمك فيحترقون، أعرف، لهذا تريد أن تعطيه، لا تحتمله."

يصمت الشيخ مرعي، لكنني أرى عضلة في فكّه تتحرك

"سيأتيك الخادم غدًا بعد العشاء،" يقول أبو زريق وهو يغلق الدفتر، "اسمه طرطوش، قديم، أعور، لا يحب الكلام، ولا يحب الأطفال، إلا لشيء واحد"

يبتسم الشيخ مرعي للمرة الأولى

"هذا ما أحتاجه"

ويستدير، ويمشي، ويختفي بين الحشود كما يختفي حجر في بئر

أنت تفكر في ابنته، أعرف، أراه في وجهك

فتاة عمياء، في بيت أبيها، تقرأ كل ليلة، ولا تعرف أن أباها باعها مرتين، مرة عينيها، ومرة صوتها، لا تعرف لماذا عميت فجأة في العاشرة من عمرها، لا تعرف أنها ستستيقظ بعد يومين أو ثلاثة وفي حلقها شيء كالشوك، ولن تستطيع أن تقرأ بعد ذلك أبدًا.

هل تريد أن تذهب إليها؟ أن تحذرها؟ لا تستطيع، ولا أستطيع أنا، هكذا يعمل السوق، البيع بيع، والعقد عقد

لكنك لم تسأل السؤال الأهم، لماذا يحتاج الشيخ مرعي إلى خادم يعرف الأرصاد؟ سأقول لك، لأنك ستعرف قريبًا على كل حال

في هذه الأرض، تحت مدنكم وقراكم وحقولكم، كنوز، ذهب، وفضة، وأشياء أقدم من الذهب، دفنها أناس قبل مئات السنين، وحين دفنوها، فعلوا شيئًا واحدًا: ربطوا عليها حارسًا.

هذا الحارس هو "الرصد"، جنّي يُربط بالكنز بعهد مكتوب بالدم، لا يتركه أبدًا، لا ينام، لا يأكل، ينتظر فقط، ينتظر من يأتي بالشرط، لأن كل رصد له شرط، كلمة سرّ، ثمن.

وأغلب الأرصاد، شرطها دم، وأقدمها، وأغلاها، شرطها دم طفل بعلامة معيّنة

لا أعرف أي طفل، ولا أريد أن أعرف، دعنا نكمل

قلتُ لك إن هذا السوق يبيع خدمًا، تعال أريك من أين يأتون، خلف دكان أبي زريق، هناك ستارة من جلد قديم، لن يلاحظنا أحد إن مررنا من خلالها.

ادخل

قفص، أقفاص، صفوف من الأقفاص الحديدية، صغيرة وكبيرة، معلّقة من سقف منخفض بسلاسل، تتأرجح بتمهّل كأنها في ريح، وفي كل قفص، شيء مخلوقات، بعضها صغير كالقطط، رمادي، بعيون بيضاء، كالذي رأيته فوق خزانة العروس، بعضها كبير، منحني، محشور في قفص أصغر منه بكثير، بعضها يئنّ، بعضها يضرب القضبان، وبعضها، ساكن تمامًا، لا يتحرك، لا يرمش، كأنه نسي كيف يكون حيًّا.

هؤلاء هم الخدم

قبل أن يكونوا خدمًا، كانوا مثلي، ومثل الساكنين الذين رأيتهم، كانت لهم بيوت، وأسماء، وحياة، ثم أمسكهم ساحر، أو اصطادهم صياد، أو باعهم أهلهم، نعم، هذا يحدث عندنا أيضًا، ثم جيء بهم إلى هنا، ويُربطون بالعمل حين يُشترى، يلتصقون به كما يلتصق الكلب بباب بيت سيده.

ولا يتحررون، إلا إذا انفكّ العمل، أو احترق

انظر إلى القفص الأخير، هناك، في الزاوية، بعيدًا عن الآخرين، قفص صغير، أصغر من أن يتسع لما فيه، جنّية

نعم، واحدة منّا، لكنها مختلفة، أصغر، أنحف، لها وجه قريب من الإنسان، شاحب، وعينان كبيرتان سوداوان كعيني غزال، شعرها طويل وأبيض كالقطن، يتدلى خارج القضبان ويكاد يلمس الأرض.

حول عنقها طوق نحاسي، وهي تنظر إليك

ليس هذا ممكنًا أيضًا، لكنها تنظر، عيناها ثابتتان عليك أنت وحدك، وشفتاها تتحركان، لا صوت، لكنني أعرف الكلمات، أعرفها جيدًا، إنها تقرأ ذلك الشيء، الذي تقرؤه أمك كل ليلة.

بصوت لا يُسمع

اخرج الآن، لا يجب أن نبقى هنا

ها نحن خارج الستارة، اهدأ قليلًا

تلك الجنية اسمها سلمى، هي من نوع نادر، من أولئك الذين يؤمنون، نعم، منّا من يؤمن، كما أن منكم من لا يؤمن، اصطادها ساحر قبل عشرين سنة، وربطها بخاتم، ثم باع الخاتم، ووصلت إلى هنا، إنها الوحيدة في الأقفاص التي لا يشتريها أحد.

لأن كل من يشتريها، يموت عمله، لا تسألني لماذا نظرت إليك، لا أعرف

أنت تكذب، نعم، أعرف ما تفكر فيه، تفكر أنني أعرف أكثر مما أقول، ربما، لكن انظر إلى أبي زريق

إنه يقف، أبو زريق الأعرج، الذي لا يقف أبدًا، الذي يجلس خلف طاولته منذ مئة سنة ولا يقوم حتى ليرحّب بملوك الأسفل، يقف الآن، مستندًا على ساق الماعز، ورأسه الصغير يدور يمينًا ويسارًا.

وأنفه يتحرك، إنه يشمّ

"لحم،" يقول بصوت خشن، "أشمّ لحمًا حيًّا، وروحًا خرجت من جسدها ولم تمت"

رأسه يدور نحونا، ببطء

لا تتحرك، لا تتحرك، اتركني أتكلم

"أبا زريق،" أقولها، وأنا أخطو إلى الأمام، وأحجبك بجسدي، "مساء الخير يا تاجر الطلاسم"

يضيّق عينيه الصفراوين

"أنت، قرين، أعرف رائحتك، ماذا تفعل هنا بعيدًا عن صاحبك؟"

"صاحبي نائم، وأنا أتجول"

"تتجول،" يقولها كمن يتذوق كلمة، "والذي خلفك؟"

"لا شيء خلفي"

"أنت تكذب، يا قرين، ونحن نحترم الكذب هنا، لكن ليس عليّ"

ثم يحدث شيء لم أتوقعه، يفتح أبو زريق دفتره الكبير مرة أخرى، يقلّب الصفحات بسرعة، صفحات وصفحات، ثم يتوقف، يمرّ بإصبعه الطويل على سطر، ويبتسم.

"آه،" يقول، "فهمت، لا تقلق يا قرين، لا تقلق، لن أؤذي ضيفك"

يرفع عينيه، وينظر من فوق كتفي، إليك مباشرة

"أنا لا أؤذي بضاعتي"

"اقرأ،" يقول، ويدير الدفتر نحوك

لا تقرأ، لا تقرأ!

قرأتَ، بالطبع قرأت، أنت الذي فتح الخزانة العلوية في غرفة جدتك، وماذا رأيت؟ رأيت اسمك، مكتوبًا بخط أحمر باهت، واسم أمك بجانبه، لأن السحر يُكتب باسم الأم دائمًا.

وتحته سطر واحد:

"عمل قديم، مدفوع الثمن، ما زال يعمل"

هيا بنا، لا، لن أجيبك الآن، قلتُ لك، الحقائق الكبيرة تحتاج معدة قوية، والليلة ما زالت في أولها

صاحبة الأثر

اجلس، نعم، هنا، على حافة هذا السطح، لا تخف من السقوط، فأنت لا تسقط الآن، أعرف أن في رأسك ألف سؤال عن الدفتر وعن الاسم وعن ذلك السطر الأحمر، وأعرف أنك غاضب مني لأنني لم أجبك.

لكن انظر إلى المدينة تحتنا قليلًا

الأضواء تنطفئ واحدًا واحدًا، الشوارع فارغة إلا من سيارة أجرة تمرّ ببطء كسمكة نائمة، والسماء في الشرق ما زالت سوداء تمامًا، ما زال أمامنا وقت طويل.

سأجيبك، لكن بطريقتي

سأريك أولًا كيف يعمل العمل حين يسكن إنسانًا، كيف يأكله من الداخل، وحين ترى ذلك بعينيك، ستفهم أشياء في حياتك لم تفهمها من قبل، وربما نتوقف عن طرح الأسئلة.

تذكر العروس؟ البيت الثالث في الشارع، الكائن الصدئ فوق الخزانة، والسلسلة الرفيعة على عنقه، سنعود إليها، لكننا لن ندخل غرفتها هذه المرة، سندخل حلمها

الأحلام أبواب أيضًا، أوسع من المرايا وأضعف من العُقد، كل نائم يترك بابه مواربًا قليلًا، ومن يعرف الطريق يستطيع أن يدخل، هكذا يدخل إليكم الكابوس، وهكذا يدخل إليكم الميت حين تحلمون به، وهكذا أدخل إليك أنا منذ ولدت.

أغمض عينيك، أقصد العينين اللتين خلف عينيك، أغمضهما، هكذا

أنت الآن في غرفة بيضاء تمامًا، بلا نوافذ، بلا أبواب، الأرضية بيضاء، والجدران بيضاء، والسقف أبيض، ولا ظلال في أي مكان، وفي الوسط، كرسي خشبي واحد.

وعلى الكرسي تجلس امرأة

شابة، في أوائل العشرينات، ترتدي فستان زفاف أبيض، لكنه ممزق عند الكتف، ومتسخ عند الحاشية بطين أسود، شعرها طويل ومنكوش، وفيه فجوات، بقع صلعاء صغيرة كأن أحدًا نتف منه خصلات بيده.

وجهها جميل، أو كان جميلًا، الآن هو شاحب، والجلد تحت عينيها أزرق داكن كالكدمة، اسمها رهف، وهي تعرف أنك هنا، في الأحلام، القواعد تختلف قليلًا.

ترفع رهف رأسها على مهل، تنظر إليك، ثم إليّ، ثم إليك مرة أخرى

"أنتما الأخيران؟" تسأل بصوت مبحوح

لا تجب

"كل ليلة يأتي أحد، ينظر إليّ ويذهب، أمس جاءت امرأة سوداء طويلة، بلا وجه، وقبلها رجل من دخان، وقبله، لا أذكر، أنتما لا تشبهانهم"

تبتسم ابتسامة متعبة

"تريدان أن تسمعا الحكاية؟ كل من يأتي يريد أن يسمعها"

لم تنتظر جوابًا

قالت رهف:

"تزوجت مازن قبل ثلاثة أشهر وأسبوعين

كنا نعرف بعضنا منذ الجامعة، أربع سنوات، أربع سنوات وأنا أنتظره حتى يجمع ثمن البيت، وحتى يقبل أبي، وحتى تموت جدته التي كانت تريده لابنة خالته.

ماتت الجدة، وقبل أبي، واستأجرنا هذا البيت الصغير في الطابق الثاني، وكان عرسنا جميلًا جدًا، رقصتُ حتى انقطع كعب حذائي، ورقصت حافية، في الليلة الأولى، كان كل شيء كما حلمت به.

في الليلة الثانية أيضًا، وفي الليلة الثالثة، استيقظت عند الفجر، استيقظت ورائحة في الغرفة، رائحة كالبيض الفاسد، كالماء الذي يبقى في المزهرية بعد أن تموت الزهور، قمت لأفتح النافذة، وحين مررت بالمرآة، رأيت شيئًا فوق الخزانة، أو رأيت ظلًّا على الأقل، ظلًّا جالسًا، له ركبتان مثنيتان.

أشعلت الضوء، لم يكن هناك شيء، ضحكت من نفسي، عدت إلى السرير، ونظرت إلى مازن النائم بجانبي، وكرهته"

تسكت رهف لحظة، أصابعها تعبث بطرف الفستان الممزق

"لا أعرف كيف أصف لك ذلك، كأن أحدًا مدّ يده داخل صدري وقلب شيئًا، كما تقلب ساعة رملية

كل ما كنت أحبه فيه، صار يقززني

صوت تنفسه، الشعر على ذراعيه، الطريقة التي يمضغ بها، رائحة جلده، حين يلمسني أحسّ كأن عنكبوتًا يمشي على ظهري، حين يتكلم أريد أن أصرخ، وهو لا يفهم، يسألني: ماذا بك؟ ماذا فعلت؟ وأنا لا أملك جوابًا، لأنه لم يفعل شيئًا.

مازن لم يفعل شيئًا أبدًا"

"ثم بدأ الشعر يسقط

في البداية ظننته الحمّام، الماء القاسي، ثم صرت أجده على الوسادة كل صباح، خصلات كاملة، كأنها قُصّت، أمي قالت: هذا من الهمّ، خالتي قالت: هذا من العين.

ثم بدأت المرأة في المرآة

أول مرة رأيتها كنت أغسل وجهي، رفعت رأسي، وكانت خلفي، امرأة طويلة للغاية، رأسها يلامس السقف، بثوب أسود، ووجهها مغطى بشعر أسود كثيف، كأن رأسها مقلوب، كأن قفاها في مكان وجهها.

التفتُّ، لا أحد، نظرت في المرآة، ما زالت هناك، صرخت حتى جاء مازن، وحين دخل، اختفت، ومن يومها، تأتي كل ليلة، تقف خلفي في كل مرآة، في زجاج النوافذ، في شاشة الهاتف المطفأة، في ملعقة الشاي.

ولا تقول شيئًا، تقف فقط، وتنتظر"

"ماذا تنتظر؟" أسألها أنا

ترفع رهف عينيها نحوي، فيهما شيء يشبه الضحك، وشيء يشبه الجنون

"تنتظرني أن أستسلم، أن أترك مازن، وأعود إلى بيت أهلي، وأطلب الطلاق، هي لا تريد شيئًا آخر، قالتها لي مرة، في الحلم، قالت: اتركيه وأتركك."

"ولماذا لا تتركينه؟"

تضحك رهف ضحكة قصيرة حادة

"لأنني أحبه"

صمت

"لا أشعر بحبه، صدقني، لا أشعر بشيء الآن غير القرف، لكنني أعرف أنني أحبه، أعرف ذلك هنا"

وتضع يدها على رأسها

"في المكان الذي لم يصلوا إليه بعد"

أترى؟ لا تبكِ، الدموع لا تنفع في الأحلام، تتبخر قبل أن تصل إلى خدك، لكن استمع للبقية، فالحكاية لم تنتهِ

قالت رهف:

"أخذتني أمي إلى شيخ

كنت أرفض، قلت لها: هذه خرافات، أنا أحتاج طبيباً نفسياً، وذهبت إلى طبيب نفسي، فأعطاني حبوباً جعلتني أنام أربع عشرة ساعة في اليوم، ولم تتغير المرأة في المرآة، صارت فقط تقف أقرب.

فذهبت مع أمي إلى الشيخ

بيته في الحيّ القديم، بيت حجري كبير، بباب أزرق، وفي الصالة رائحة بخور ثقيلة، وفي إحدى الغرف كانت فتاة تقرأ القرآن بصوت، يا الله، صوتها، لم أسمع صوتًا كهذا في حياتي، قال الشيخ إنها ابنته، عمياء، جلس أمامي الشيخ، رجل طويل، بلحية رمادية مشذبة، نظر إليّ طويلًا، ثم ابتسم.

قال: معمول لك عمل تفريق، قوي، مدفون في قبر، قالت أمي: من؟ من عمله؟ قال الشيخ: لا يجوز أن أقول، لكنه من امرأة لها عين عليه، نظرت أمي إليّ، وأنا عرفت فورًا، عرفت من يقصد."

"سوسن

ابنة خالة مازن، التي أرادتها جدته له

لم أرَها إلا مرتين، في الخطبة، وفي العرس، وفي العرس جاءت إليّ وقبّلتني على خدّي، وقالت: مبروك يا عروس، ومسحت بيدها على شعري، على شعري، ولم أفهم لماذا يومها.

الآن أفهم

قرأ عليّ الشيخ، بخّرني، أعطاني ماءً في قارورة بلاستيكية وقال: اشربي منه كل صباح، واغتسلي بالباقي، وقال: العمل قوي، يحتاج أربع جلسات، دفعت أمي أربعمائة.

وفي الليلة نفسها"



تتوقف رهف، تنظر إلى يديها، ثم ترفعهما أمام وجهها، ونرى، أنت وأنا، أظافرها، مقلوعة، ثلاثة أظافر في اليد اليمنى، مقلوعة من جذورها، والأصابع حمراء متورمة.

"في الليلة نفسها،" تقول بصوت خافت جدًا، "استيقظت وأنا أقلعها، بأسناني، ومازن يمسك يدي ويصرخ"

ها أنت ترى الآن، الشيخ مرعي

قرأ عليها بفمه، وقلبه في السوق، أعطاها ماءً، وفي الماء ما يقوّي الخادم بدل أن يحرقه، أخذ أظافرها، نعم، الأظافر التي قلعتها، جمعتها أمها في منديل، وأعطتها للشيخ لأنه طلبها "ليحرقها مع العمل"، وفي الصباح التالي، كانت الأظافر في صرّة صغيرة على طاولة أبي زريق.

بضاعة جديدة

تقول رهف:

"أما مازن، فصار ينام على الكنبة في الصالة، أنا طلبت منه ذلك، صرخت في وجهه ليلة كاملة حتى خرج من الغرفة، وفي الصباح وجدته نائمًا على الكنبة القصيرة، وساقاه معلّقتان في الهواء، وعلى صدره مصحف صغير مفتوح، كان يقرأ طوال الليل، عرفت ذلك من الصفحة.

ولم أقل له شيئًا، مررت بجانبه إلى المطبخ ولم أنظر إليه، لكنني في تلك الليلة الوحيدة، لم أرَ المرأة في المرآة، ولم أفهم لماذا، وحين سألني في المساء كيف نمت، قلت له: نمت سيئًا، وكذبت، ولا أعرف لماذا كذبت، كأن أحدًا وضع الكذبة على لساني.

وفي الليلة التالية عاد ينام على الكنبة، ولم يقرأ، كان متعبًا جدًا، ونام قبل أن يفتح المصحف، وعادت المرأة"

وتكمل رهف:

"الجلسة الثانية كانت أسوأ، والثالثة، لا أريد أن أتذكرها

بعد الثالثة صرت لا أعرف متى أكون نائمة ومتى أكون صاحية، أرى المرأة في الشارع، في وجوه الناس، أرى وجه سوسن في وجه أمي، أسمع صوتًا في أذني اليسرى يقول لي: اقطعي، اقطعي، اقطعي.

لا يقول ماذا أقطع، لكنني أعرف، الأسبوع الماضي، وجدت نفسي في المطبخ، في الثالثة فجرًا، والسكين في يدي، ومازن نائم في الغرفة، لا أعرف إن كنت ذاهبة إليه، أم إلى نفسي."

صمت طويل، الغرفة البيضاء تبدو أصغر الآن، الجدران اقتربت، ثم تسمع شيئًا، صوت حكّ أظافر على الجدار، من الخارج، ورهف تنكمش في كرسيها

"إنها هي،" تهمس، "إنها تعرف أنكما هنا"

تتشقق الغرفة البيضاء، خط أسود رفيع يظهر في الجدار المقابل، يمتدّ ببطء، كصدع في جليد، ثم خط آخر، ثم ثالث، ومن الشقوق، يتسلل شعر أسود طويل، كثيف، رطب، يتحرك كالديدان، يزحف على الجدار الأبيض، على الأرض البيضاء، نحو الكرسي.

"اذهبا،" تقول رهف، "اذهبا قبل أن تراكما"

"تعالي معنا!"

هذا صوتك، أنت قلتها، لا أعرف كيف خرج صوتك في الحلم، لكنه خرج

تنظر إليك رهف

ويحدث شيء في وجهها، للحظة واحدة، يعود إليه شيء من الجمال الذي كان، لون ورديّ خفيف في الخدين، لمعة في العينين

"لا أستطيع،" تقول، "أنا مربوطة، ألا ترى؟"

وتشير إلى قدميها، وترى، حول كاحليها، خيط أحمر، ملفوف سبع مرات، ومشدود إلى الأرض

"لكن،" تقول، وتنحني نحوك، والشعر الأسود يصل إلى ساقي الكرسي، "إن رأيتَ قبرًا فيه صورتي مقطوعة، ابحث عن المسمار في الوسط، انزعه"

"رهف!"

"انزعه!"

ثم يلتفّ الشعر حول الكرسي، ويغطيها

اخرج! افتح عينيك، العينين اللتين خلف عينيك! افتحهما الآن!

ها نحن، على السطح مرة أخرى، تنفّس، أو ما يشبه التنفس، أنت بخير، لم تلمسك، لا شيء يلمسك وأنت معي

لكنك تنظر إليّ بغضب، أعرف لماذا، تريد أن تذهب إلى ذلك القبر، تريد أن تنزع المسمار، اسمع، أتيت بك لترى فقط، هذه رحلة، وأنت سائح، السائح لا يتدخل في حياة البلاد التي يزورها، يلتقط الصور ويعود إلى بيته.

ثم ماذا تظن أنك ستفعل؟ يدك تمرّ عبر الأشياء، ألم تفهم بعد؟ لا تستطيع أن تنزع مسمارًا

لكنك تكلمت في الحلم، نعم، لاحظتُ ذلك، وهذا لم يكن مفترضًا أن يحدث، حسنًا، سأخبرك بشيء، لأنني أرى أنك لن تسكت حتى أفعل

أنت محق، في الحلم تكلمت، والحلم أقرب إلى عالمنا من عالمكم، وكلما بقيت هنا أطول، صرت أثقل قليلًا، أكثر حضورًا، ربما بعد ليلة أو ليلتين، تستطيع أن تلمس الأشياء.

لكن هذا خطر، لأن من يستطيع أن يلمس، يُلمس

وأنا لا أريدك أن تُلمس

لا أعرف لماذا قلت هذا، انسَه

أبعد عينيك عني، أنا أحميك، ألا ترى؟ كل ما أفعله الليلة هو أن أحميك، حسنًا، حسنًا! سأريك المقبرة، سأريك قبر رهف، والمسمار، ولن تلمسه، ستنظر فقط.

اتفقنا؟

اتفقنا

ثم هناك شيء آخر في المقبرة، شيء ستراه هناك ولم أكن أريدك أن تراه قبل نهاية الرحلة، لكنك عنيد، ورثت العناد من جدتك، وجدتك، يا صاحبي، هي من بدأ كل هذا.

مقبرة الأعمال

لكل مدينة مقبرتان الأولى تعرفها، تزورها في الأعياد، وتقف أمام شاهد قبر أبيك أو جدك، وتقرأ الفاتحة بسرعة لأن الشمس حارقة والأطفال يتشاجرون في السيارة، ترى فيها الأشجار اليابسة، والأعشاب البرية، وقطة نائمة على رخام بارد، وعجوزًا تبيع الماء والريحان عند البوابة.

والثانية، هي نفسها، لكنك تراها الآن بعينين أخريين

انظر من هنا، من فوق التلة

مقبرة التلّ الشرقي، أقدم مقابر المدينة، فيها قبور عمرها مئتا سنة، وشواهد مائلة لم يعد أحد يقرأ ما كُتب عليها، وأسوار حجرية تهدّم نصفها، ماذا ترى؟

خيوط، نعم، آلاف الخيوط

تخرج من الأرض، من بين القبور، رفيعة ولامعة، بعضها أحمر وبعضها أسود وبعضها بلون الصدأ، تصعد في الهواء، وتمتدّ فوق السور، وتعبر الشوارع، وتتسلق

العمارات، وتدخل من النوافذ، كأن المقبرة عنكبوت ضخم مدفون تحت الأرض، والمدينة كلها شبكته.

كل خيط، عمل، وفي طرف كل خيط، إنسان

اتبع خيطًا واحدًا بعينك، ذلك الأحمر، الذي يخرج من قرب الشجرة الكبيرة

يصعد، يعبر الشارع الرئيسي، يمرّ فوق الجامع، نعم، فوق، لا يستطيع أن يمرّ من خلاله، ثم ينحدر نحو الحيّ الجديد، نحو عمارة بيضاء من عشرة طوابق، ويدخل من نافذة في الطابق السابع، هناك ينام رجل في الخمسين، مدير بنك، ناجح، غني، محترم.

ومنذ سبع سنوات، لا يستطيع أن ينام إلا ثلاث ساعات في الليلة، يأخذ الحبوب، يذهب إلى الأطباء في الخارج، يدفع آلافًا، والخيط الأحمر ملفوف حول رأسه كالعمامة.

واتبع ذلك الأسود، يخرج من الركن الشمالي، ويذهب بعيدًا للغاية، أبعد من حدود المدينة، نحو القرى في الجنوب، لا أعرف إلى أين ينتهي، بعض الأعمال تُدفن في مدينة وتعمل في مدينة أخرى، المسافة لا تعني شيئًا للخيط.

هيا بنا ننزل، انتبه لخطواتك، أعرف أنك لا تملك خطوات الآن، لكن انتبه مع ذلك، هذه الأرض لها سكانها، وهم لا يحبون الزوار

نحن الآن بين القبور، الصمت هنا مختلف عن صمت السوق، وعن صمت البيوت، صمت مليء، كأن كل حجر يحبس أنفاسه، انظر إلى يمينك، ذلك القبر الصغير، قبر طفل، من شاهده القصير، يخرج منه ثلاثة خيوط، وعلى الشاهد، يجلس شيء.

نعم، خادم، يشبه الذي رأيته فوق خزانة رهف، لكنه أصغر، أنحف، ملتفّ على نفسه كقطة جائعة، وعيناه البيضاوان مفتوحتان، لا ترمشان، إنه يحرس، وانظر إلى يسارك، قبر آخر، وعليه خادم آخر، وآخر، وآخر، كل قبر تقريبًا في هذا الصف، عليه حارس.

لماذا قبور الأطفال؟ سؤال جيد

لأن الطفل لا يُزار كثيرًا بعد سنوات، الأم تأتي في الشهر الأول كل يوم، في السنة الأولى كل أسبوع، ثم كل عيد، ثم تكبر الأم، وتموت، أو تنتقل إلى مدينة أخرى، أو يأتيها أطفال جدد يأخذون كل وقتها.

ويبقى القبر الصغير وحيدًا، لا أحد يقرأ عنده، لا أحد ينظفه، لا أحد يرى الحفرة الصغيرة التي حُفرت في طرفه ذات ليلة، ثم رُدمت، والقبر المهجور، أفضل مكان لدفن العمل.

ثم هناك سبب آخر، الطفل الميت بريء، وقبره هادئ، والعمل المدفون في مكان بريء، يصعب إيجاده، كأنك تخبئ سكينًا في سرير رضيع، من سيبحث هناك؟

ششش، اخفض رأسك، انظر هناك، بين الشجرتين

ترى ذلك الشكل الذي يحفر؟

منحني على الأرض، يحفر بيديه، يداه طويلتان جدًا، بأصابع كالمجارف، ظهره عارٍ ومحدّب، وجلده رمادي مخضرّ كجلد ضفدع ميت، ورأسه كبير، بلا شعر، وأذناه طويلتان مدببتان كأذني خفاش.

وفمه، لا تنظر إلى فمه، هذا غول

تقول الحكايات إن الغيلان تكتفي بالموتى، والحكايات تكذب، الغيلان تأكل كل شيء

لكنها في المقابر، تأكل ما يُدفن مع الأعمال، الأظافر، الشعر، قطع الثياب، الصور، الأشياء التي فيها أثر من إنسان حيّ، هذه وجبتها المفضلة، لأن فيها طعم الحياة دون الحاجة إلى مطاردة.

ولهذا، يكرهها الخدم، لأن الغول إن أكل العمل، انقطع الخيط، وتحرّر المسحور، لا تبتسم، ليس هذا خبرًا سعيدًا

حين يأكل الغول عملًا، يأخذ معه شيئًا من صاحبه، قطعة صغيرة من روحه، لهذا ترى أحيانًا أناسًا شفوا فجأة من سحر قديم، لكنهم لم يعودوا كما كانوا، صاروا أبرد قليلًا، أبعد، كأن أحدًا أطفأ مصباحًا صغيرًا في داخلهم.

لنبتعد عنه، قبر رهف في الطرف الآخر

ها هو، قبر صغير، شاهده من رخام أبيض اصفرّ مع الزمن، وفيه شرخ قطري، الكتابة عليه باهتة، لكنك تستطيع أن تقرأ:

"هنا يرقد الطفل أحمد، توفي سنة ١٩٩١، عن عمر سنتين"

والباقي ممحو

يخرج من طرف القبر خيط واحد، أحمر قاتم، كلون الدم الذي جفّ، يصعد في الهواء، ويتّجه نحو الشارع الذي تسكن فيه، نحو بيت رهف، وعلى الشاهد؟

لا شيء، لا خادم هنا

غريب، الخادم فوق خزانة رهف، نعم، لكن العمل المدفون يحتاج حارسًا آخر، كل عمل له حارسان: واحد عند المسحور، وواحد عند العقدة، أين ذهب؟

انظر إلى الأرض، الحفرة الصغيرة في طرف القبر، مكشوفة، أحدهم حفر هنا، منذ وقت قريب، التراب ما زال رطبًا، انحنِ، انظر

ترى؟ في الحفرة، قطعة قماش أبيض، من النوع الذي تُصنع منه فساتين الأعراس، ملفوفة على شيء، ومن تحتها يبرز شيء معدني، رأس مسمار، صدئ، سميك، طويل كإصبع.

لماذا الحفرة مكشوفة؟ لا أعرف، ربما الغول بدأ يحفر ثم هرب حين سمعنا، ربما الخادم ذهب يأكل، أحيانًا يتركون مواقعهم ليتغذوا، ربما، لا يهم، انظر فقط، قلتَ إنك ستنظر.

أنت تقترب، لا تقترب، أنت تمدّ يدك، قلتُ لك، يدك تمرّ عبر الأشياء، لن تستطيع

ماذا فعلت؟!

أصابعك لمست المسمار، لمسته فعلًا، رأيت ذلك، رأيته يتحرك، ميليمترًا واحدًا، لكنه تحرك، وأنت تصرخ، يدك تحترق، أرى الدخان يتصاعد منها كأنك لمست حديدًا خرج للتو من النار.

لا تصرخ! لا تصرخ!

متأخر

هل تسمع؟ الصوت خلفنا، صوت شيء يجري على أربع، شيء ثقيل، الغول، سمعك

لا تلتفت، اجرِ، لا، ليس من هنا، القبور في هذا الصف كلها عليها خدم، وهم سيصرخون إن مررنا بهم، من هنا، يسارًا، بين الشواهد، أسرع!

يا إلـ

أتراني كدت أقولها؟ أنا؟ اجرِ فقط!

أصوات خلفنا، خشخشة، حكّ أظافر على الحجر، صوت تنفّس، ثقيل، رطب، كتنفس كلب مريض، وهو يقترب، أشعر بأنفاسه على ظهري، على ظهرك، أعرف أنك تلتفت، لا تلتفت.

التفتّ

رأيته، رأيت وجهه للمرة الأولى من قريب، رأسه الكبير الأملس، عيناه الصغيرتان الحمراوان كحبّتي رمان، وفمه

فمه يمتدّ من أذن إلى أذن، ويُفتح، أوسع مما ينبغي، أوسع من رأسه، وفي داخله صفوف من الأسنان، صفوف وراء صفوف، صغيرة ومدببة كأسنان سمكة القرش.

وهو يمدّ يده الطويلة نحوك، أصابعه، على بعد شبر من كتفك

ثم يتوقف، فجأة، كأنه اصطدم بجدار لا تراه، يقف، ويرتجف، وفمه يغلق ببطء، وعيناه الحمراوان، تنظران إلى ما خلفك، إلى القبر الذي توقفنا أمامه

استدر، انظر

قبر قديم، بشاهد بسيط من الحجر الأبيض، بلا زخارف، مزروع حوله نبات صغير أخضر، رغم أن كل ما حوله يابس، والقبر، يلمع بذلك الضوء الذهبي الخافت

الذي رأيته حول غرفة أمك، ضوء دافئ، هادئ، كضوء شمعة في نافذة بعيدة في ليلة شتاء.

والغول يتراجع، خطوة، خطوتين، ثم يستدير ويهرب، ويختفي بين الشواهد كما يختفي الدخان

اقرأ الشاهد، لا حاجة لأن تقرأ، أنت تعرف من هنا

جدتك، الحاجة، نعم، أمّ أمك

التي كانت تمشط شعرك وأنت صغير بمشط عاجي وتغني لك أغنية عن عصفور فقد أمه، التي كانت تخبئ لك الحلوى في جيب ثوبها الأسود، التي كانت غرفتها تفوح برائحة المسك والصابون البلدي، التي ماتت حين كنت في الثانية عشرة.

ولم تبكِ في جنازتها، هل تذكر؟ لم تبكِ، وقف الجميع يبكون حولك، وأنت واقف كالحجر، وأمك ضربتك على كتفك في البيت وقالت: "أليس لك قلب؟" وأنت لم تكن تعرف لماذا لم تبكِ.

أنا أعرف

كنتُ أنا، حبستُ دموعك تلك الليلة

لماذا؟ لأنني كنت فرحًا

لا تحدّق فيّ هكذا، قلتُ لك إنني لن أكذب الليلة، نعم، كنت فرحًا يوم ماتت جدتك، فرحًا هو الأكبر منذ ولدت، لأنها كانت عقبة

جدتك يا صاحبي كانت تخفي أشياء

أعرف أنها كانت تصلي، وتقرأ، وتحمل مسبحتها في كل مكان، لكن هل سألت نفسك يومًا عن تلك الصرّة الخضراء في خزانتها العلوية؟ عن الخيط الأحمر؟ عن الشيء الصلب في داخلها؟ أنت رأيته الليلة، في دفتر أبي زريق.

"عمل قديم، مدفوع الثمن، ما زال يعمل"

من تظن أنه دفع الثمن؟

لا تقل ذلك، انظر خلف الشاهد

هناك، في الظل خلف قبر جدتك، امرأة، عجوز، منحنية، بثوب أسود طويل، ومنديل أبيض على رأسها، ومسبحة في يدها، وجهها مجعّد، وعيناها صغيرتان لامعتان، تبتسم لك.

"حبيبي،" تقول بصوت تعرفه، صوت يأتيك من أعماق طفولتك، "كبرت يا حبيبي"

لا تتحرك، لا تقترب، اسمعها فقط

"سامحني يا حبيبي،" تقول العجوز، ودموع تنزل على خديها المجعّدين، "أنا فعلتها، أنا، كنت خائفة عليك، خائفة أن يصيبك ما أصاب خالك، فذهبت إلى رجل قال لي إنه سيحميك، ثم تبيّن أنه كاذب."

تمدّ يدها نحوك

"تعال يا حبيبي، تعال أخبرك أين دفنته، تعال نفكّه معًا"

أنت تتقدم نحوها، خطوة، خطوتين

ثم تتوقف، لماذا توقفت؟

أنت تنظر إلى القبر، إلى الضوء الذهبي، ثم إلى المرأة العجوز خلفه، في الظل، بعيدًا عن الضوء، بعيدًا جدًا، وفي عينيك سؤال، أعرف ما هو، إن كانت جدتك، إن كانت فعلًا هي، فلماذا تقف في الظلّ؟ لماذا لا تقف في الضوء الذي يخرج من قبرها؟

العجوز تتوقف عن البكاء، وجهها يتجمد، ثم يتحرك بطريقة خاطئة، كأن أحدًا يشدّ الجلد من الخلف، العينان تتسعان، الفم يتمدد، وتبتسم، ابتسامة واسعة، أوسع قليلًا مما ينبغي، ثم تتلاشى، كما يتلاشى البخار عن الزجاج.

ماذا كان ذلك؟

لا أعرف

لا تتّهمني بعينيك

قلتُ لك لا أعرف، المقابر مليئة بأشياء تتخذ أشكال الموتى، "الهامة" تسميها جداتكم، تتغذى على الحزن، تقرأ ذكرياتك وتلبسها كثوب، ربما رأتك وأنت تنظر إلى قبر جدتك وقررت أن تلعب بك قليلًا.

هذا كل شيء

لكنك لا تصدقني، أرى ذلك، للمرة الأولى منذ بدأنا، أرى في عينيك شيئًا لم أره من قبل، شكًّا

حسنًا، لا بأس، الشك جيد، الشك يجعل الرحلة أكثر إثارة

لكن تذكر، أنت هنا معي، وحدك، روحك خارج جسدك، وجسدك ممدد على بلاط حمّام بارد في بيت لا يعرف أحد فيه أين ذهبت، وأنا الوحيد الذي يعرف طريق العودة.

ثق بي، أو لا تثق، لكن لا تتركني

هيا بنا، يدك، كيف يدك؟ انظر إليها، أصابعك، حيث لمست المسمار، سوداء، كأنها احترقت، وأرى الأثر يصعد رويدًا نحو المعصم، نكيط حبر في ماء، لا تقلق، سيزول.

ربما

التالي في الرحلة: الشيخ مرعي

قال أبو زريق إن الخادم سيصله بعد العشاء غدًا، وما زال لدينا وقت قبل الفجر، لكن في عالمنا، غدًا قد يكون الآن، الوقت هنا ليّن كالعجين.

تعال، سأريك كيف يبيع الرجل ابنته، وسأريك بعدها، لماذا يحتاج إلى طفل

البيت ذو الباب الأزرق

الحيّ القديم ينام متأخرًا ويستيقظ مبكرًا تعرفه، أزقته الضيقة المرصوفة بالحجر الأسود، وبيوته المتلاصقة التي تكاد شرفاتها تتعانق فوق رأسك، ورائحة الخبز التي تخرج من الفرن عند الرابعة فجرًا، وصوت الحمام على الأسطح، في النهار تمرّ به السياح بكاميراتهم، ويلتقطون الصور أمام الأبواب الخشبية المنقوشة.

لكن في الليل، وفي عالمنا، انظر

الأزقة نفسها، البيوت نفسها، لكن الحجارة تتنفس

ترى كيف تنتفخ الجدران قليلًا ثم تنكمش؟ وترى تلك العيون الصغيرة التي تلمع في الشقوق بين الحجارة؟ والأشكال التي تجلس على حواف الشرفات وتتدلى أرجلها الطويلة كالحبال؟ الحيّ القديم أقدم مسكن في المدينة، لهم ولكم، هنا عاش أجدادكم مع أجدادنا ألف سنة، جدارًا لجدار، يعرفون بعضهم، يتجنبون بعضهم، وأحيانًا، يتزاوجون.

لا تضحك، هذه حكاية أخرى

البيت ذو الباب الأزرق، ها هو في آخر الزقاق المسدود

بيت كبير من الحجر الأصفر، بطابقين، وفيه مشربية خشبية فوق الباب، والباب نفسه أزرق باهت، مقشّر، وعليه مطرقة نحاسية على شكل يد امرأة، ترى ما فوق الباب؟ لوح صغير محفور فيه آية، من تلك التي يعلّقها الناس على أبوابهم.

لكن انظر جيدًا، اللوح مقلوب

نعم، مقلوب، ومن يمرّ لا ينتبه، الحروف الكوفية المتشابكة تبدو صحيحة من أي جهة لعين لا تقرأ بعناية، لكننا ننتبه، اللوح المقلوب، دعوة

ادخل، لن تشعر بالبرودة هذه المرة، ستشعر بالحرارة، حرارة خانقة، كأنك تدخل فرنًا، هذا البيت مليء بنا

الصالة واسعة، بسقف عالٍ مقبب، سجاد أحمر قديم يغطي الأرض، أرائك منخفضة على الجوانب، وفي الوسط، مجمرة نحاسية كبيرة، فيها جمر خافت ورماد أبيض، ورائحة البخور، ثقيلة، حلوة، مقززة، تلتصق بك.

هنا يستقبل الشيخ مرعي زبائنه، انظر إلى الزوايا

في كل زاوية، خادم

أربعة، واحد في كل ركن، جالسون كالتماثيل، رؤوسهم منحنية، أيديهم على ركبهم، أحدهم بحجم طفل، وآخر بحجم رجل، وثالث يكاد رأسه يلامس السقف رغم أنه جالس.

والرابع، لا شيء في الزاوية الرابعة، بقعة فارغة، والسجاد هناك محروق قليلًا، كأن شيئًا ثقيلًا وحارًّا جلس عليه طويلًا، ثم رحل

اسمع، من الطابق العلوي، صوت

إنه صوتها، آمنة، ابنة الشيخ مرعي، تقرأ

اسمع، لا، اقترب، اصعد الدرج، ببطء، اسمع

أرأيت؟ حتى أنا أرتجف

لا أستطيع أن أصف لك صوتها، أنت تسمعه الآن، وستفهم

صوت يشبه الماء حين يجري بين الحصى في نبع جبلي، يشبه صوت أمك وهي تنادي اسمك من بعيد وأنت صغير، يشبه الضوء، إن كان للضوء صوت.

والكلمات التي تقرؤها، لا أستطيع أن أسمعها جيدًا، أنا لا أسمع هذه الكلمات أبدًا بوضوح، تصلني كضجيج، كصفير حادّ في أذنيّ، كإبر، لكنك أنت تسمعها.

أراك تغمض عينيك

افتح عينيك! لا تغمضهما هكذا

انظر من الباب، باب غرفتها مفتوح قليلًا، غرفة صغيرة، بسيطة، سرير حديدي ضيق، وخزانة خشبية، ونافذة تطلّ على فناء داخلي فيه شجرة ليمون، وعلى الأرض، سجادة صلاة.

وعليها تجلس آمنة، ثلاثون سنة، ربما أقل، نحيلة للغاية، بثوب رمادي بسيط، وشعر أسود مضفور في جديلة واحدة طويلة، وجهها مستدير ولطيف، وعيناها مفتوحتان، مفتوحتان، وبيضاوان تمامًا.

بلا حدقة، بلا لون، كعيني الخادم

نعم، لاحظت ذلك، عيناها كعيني الخادم الذي أكلهما

كانت في العاشرة

أبوها في ذلك الوقت كان مرعي فقط، بلا مشيخة ولا عمامة، موظف صغير في البلدية، فقير، مدين، زوجته ماتت في الولادة وتركته مع طفلة، وكان قرينه، يحدّثه كل ليلة.

كما أحدّثك أنا

لن أطيل، القصة معروفة، تتكرر كل يوم في مكان ما

الرجل الفقير يسمع صوتًا، الصوت يقول له إن هناك طريقًا أسهل، الرجل يرفض، الصوت يصبر، الرجل يرفض مرة أخرى، الصوت يصبر أكثر، ثم ذات ليلة، حين يأتي الدائن ويهدد بأخذ البيت، يتوقف الرجل عن الرفض.

ويسمع، فقط يسمع، ويعقد شعرة بين إصبعيه، وينفخ

نعم، مثلك تمامًا

كفّ عن النظر إليّ بهذه الطريقة، قلت فقط إنه بدأ مثلك، كلكم تبدؤون بالطريقة ذاتها

اسكت، انظر، آمنة توقفت عن القراءة

إنها ترفع رأسها، عيناها البيضاوان، تدوران في الغرفة، ببطء، كأنها تبحث عن شيء، ثم تتوقفان، على الباب، علينا

"من هنا؟" تسأل بصوت ناعم

لا تجب

"أبي؟"

صمت، تميل برأسها قليلًا، أنفها يتحرك، مثل أبي زريق في السوق، تشمّ

"أنت لست من الذين يأتون كل ليلة،" تقول بتهّل، "لك رائحة أخرى، رائحة صابون، وتراب مبلول"

ثم تبتسم

"أنت حيّ، أليس كذلك؟"

لا تتحرك، هي عمياء، لا تراك، هي فقط، حساسة، العميان يحسّون بأشياء لا تحسّونها، هذا كل شيء

"اسمع،" تقول آمنة، وتنحني نحو الباب، وصوتها ينخفض إلى همس، "لا أعرف من أنت، ولا لماذا أنت هنا، لكن إن كنت حيًّا، فاسمعني جيدًا

أبي سيفعل شيئًا الليلة، شيئًا كبيرًا، سمعته يتحدث في الليل مع أحدٍ صوته كصوت الحديد حين يُجرّ على الأرض، سمعتهما يتحدثان عن ولد صغير، وعن الخرابة التي خارج المدينة، لا أعرف ما معنى هذا الكلام، لكنني أعرف أنه شيء سيئ.

إن كنت تستطيع، إن كنت تستطيع أن تفعل أي شيء،" صوتها يرتجف

"أنقذ هذا الولد"

ثم تسمع خطوات، على الدرج، ثقيلة، بطيئة

آمنة تعتدل بسرعة، تعود إلى سجادتها، تفتح المصحف أمامها، المصحف المكتوب بحروف بارزة لتقرأه بأصابعها، وتبدأ تقرأ مرة أخرى، لكن صوتها الآن، أضعف، مرتجف قليلًا.

والخطوات تقترب، هيا، إلى الزاوية، هناك، خلف الخزانة

الشيخ مرعي، يقف في الباب، بجلبابه الأبيض النظيف، وعمامته، ولحيته الرمادية، ينظر إلى ابنته من الباب، ولا يدخل، لاحظ ذلك، لا يدخل، لا يستطيع، الغرفة، انظر إلى الغرفة الآن بعينيك الأخريين، إنها تلمع بذلك الضوء الذهبي، أقوى من قبر جدتك بكثير، كأن الغرفة كلها مصنوعة من الضوء.

والشيخ مرعي يقف على حدّها، وأرى أطراف جلبابه تتجعّد قليلًا، كأنها قريبة من نار

"آمنة،" يقول بصوت هادئ

"نعم يا أبي"

"أنهي قراءتك، ونامي، غدًا عندنا ضيوف"

"حاضر يا أبي"

ينظر إليها لحظة أخرى، وفي وجهه، في وجهه شيء لم أتوقعه، ألم حقيقي، ثم يستدير، ويمشي

اتبعه

ينزل الدرج، يمرّ بالصالة، يتوقف أمام الخدم الأربعة، الثلاثة، وينظر إلى الزاوية الفارغة طويلًا، ثم يمشي إلى باب صغير في آخر الممر، باب خشبي منخفض، مقفل بقفلين، يفتحهما بمفتاحين يخرجهما من صدره، معلّقين في خيط حول عنقه.

وينزل

ونتبعه

الدرج حجري، ضيق، شديد الانحدار، ودرجاته متآكلة في الوسط كأن أقدامًا كثيرة نزلت عليه عبر مئات السنين، والجدران على جانبيه رطبة، وفيها كتابات محفورة بمسمار، أسماء، عشرات الأسماء، بعضها قديم جدًا لا يُقرأ، وبعضها حديث وواضح.

أسماء زبائنه، كل من جاءه طالبًا العلاج، يحفر اسمه هنا في الليلة نفسها، ويحفر بجانبه اسم أمه، وأرى بينها، قرب أسفل الدرج، اسمًا حُفر قبل أسابيع، الحروف ما زالت حادّة، والغبار الأبيض ما زال في الشقوق.

"رهف"

وتحته اسم أمها، وبعده بقليل، اسم آخر، أصغر، حفرته يد مستعجلة

"يوسف"

قبو، رطب، مظلم، تضيئه شمعة واحدة سوداء على طاولة حجرية

على الجدران، رفوف، وعلى الرفوف، قوارير، مئات من القوارير، كتلك التي رأيتها في دكان أبي زريق، شعر، وأظافر، وأشياء لا تريد أن تعرفها، وفي الوسط، مرآة كبيرة بإطار من نحاس أسود، مغطاة بقماش أحمر، يجلس الشيخ مرعي أمامها على كرسي خشبي.

ويرفع القماش

في المرآة، يظهر شيء آخر غير الشيخ مرعي، شيء يشبهه، اللحية نفسها، العمامة نفسها، لكن أطول، أنحف، وعيناه لا تطرفان، وابتسامته أوسع بقليل

نعم، قرينه

"جاهز؟" يسأل القرين في المرآة

"جاهز"

"وآمنة؟"

يسكت الشيخ مرعي، ثم يقول بصوت متعب:

"أبو زريق قال إن الخادم يأتي بعد العشاء، يأخذ صوتها، وتنتهي"

"وأنت؟ هل ستحتمل؟"

"احتملتُ عينيها"

"كنتَ أصغر يومها، وكانت هي أصغر، الآن، هي تقرأ منذ عشرين سنة، صوتها صار مشكلة يا مرعي، خدمك يحترقون، كل ليلة أفقد واحدًا، الرابع ذاب الأسبوع الماضي، رأيتَ الزاوية."

"رأيتُ"

"إن لم يُسكَت صوتها، لن تستطيع أن تفتح الرصد قديم، يحتاج خدمًا أقوياء ليفكّوا عقدته، وخدمك يضعفون كل ليلة وهم يسمعونها"

صمت طويل، ثم يقول الشيخ مرعي شيئًا جعلني، حتى أنا، أشعر ببرودة

"تعرف، أحيانًا أقف على باب غرفتها وأسمعها، وأتمنى لو أستطيع أن أدخل، أن أجلس بجانبها، أن أقرأ معها كما كنت أفعل حين كانت صغيرة وكنت أعلّمها الحروف."

"لا تستطيع"

"أعرف"

"لقد اخترت"

"أعرف!"

يضرب الشيخ مرعي الطاولة الحجرية بقبضته، والشمعة السوداء ترتجف، والقرين في المرآة، يضحك

"لا تغضب يا مرعي، لا تغضب، فكّر فيما ستحصل عليه، الكنز، الذهب الذي تحت الخرابة، ذهب يكفيك ويكفي أولادك وأحفادك، ستغادر هذه المدينة، ستشتري بيتًا على البحر، وستأخذ آمنة معك، وستعالجها عند أطباء الخارج، ربما تعود إليها عيناها."

"الذي أخذه الخادم لا يعود"

"من قال؟"

ينظر الشيخ مرعي إلى المرآة، وفي عينيه، أمل صغير، مريض، كنبتة تنمو في قبو

"حقًّا؟"

"حقًّا، ملك الأسفل يستطيع كل شيء، إن جئتَه بالكنز، وبالطفل، سيعطيك ما تريد"

"وإن رفض الرصد دم الطفل؟" يسأل مرعي فجأة، "إن أراد دمًا آخر؟"

يضحك القرين في المرآة، "الأرصاد لا تسأل عن الأسماء يا مرعي، عهدها يقول دم، وكفى"

ويسكت مرعي، وأراه ينظر إلى معصمه الأيسر طويلًا، إلى العروق الزرقاء تحت الجلد، كأنه يقرأ فيها شيئًا، ثم يغطيه بكمّ جلبابه، ويرفع عينيه إلى المرآة كأن شيئًا لم يكن.

أنت تفهم الآن، أليس كذلك؟ الرجل يبيع صوت ابنته، ليشتري لها عينيها، ويقتل طفلًا ليصل إلى ذلك، وكل هذا، بنصيحة من صوت في مرآة

لا تنظر إليّ، لا تقارن

انتظر، الشيخ مرعي، يدير رأسه، ينظر إلى الزاوية، إلينا

"هناك أحد هنا،" يقول بهدوء

والقرين في المرآة يتوقف عن الابتسام

"شمّيت ريحته فوق، عند آمنة،" يقول الشيخ وهو يقف، "رائحة صابون، وتراب، وحريق"

يرفع يده، ويقول كلمة بلغة لا تعرفها، حادة كالشفرة

الخدم في الصالة فوقنا، يستيقظون، أسمعهم، أسمع أصوات أجسادهم الثقيلة وهي تتحرك، أسمع خطواتهم على الدرج

اجرِ، اخرج من الجدار، من هنا، الآن!

نحن في الزقاق، نحن في الزقاق! لا تقف، اجرِ!

ها نحن، على سطح الجامع الكبير، لا يستطيعون أن يتبعونا إلى هنا، نعم، أنا أيضًا لا أحب هذا المكان، الأرض تحرق قدميّ، لكنه آمن

لدقيقة

أنت تنظر إلى يدك، نعم، أراها، الأثر الأسود، صعد الآن إلى ما فوق المعصم، وصار أوضح، كأن جلدك تحوّل إلى فحم، لكنك تستطيع أن تلمس الآن.

انظر، أنت تمسك حافة السور الحجري، تمسكه فعلًا

هذا ما كنت أخشاه

اسمع، لم يبقَ وقت كثير، الشيخ مرعي شمّك، وقرينه رآك، والخدم يبحثون عنك الآن في كل زقاق في الحيّ القديم، وأنت، صرت ثقيلًا، صرت شيئًا بين الروح والجسد.

شيئًا، يمكن أن يُصاد

لكنك لا تسمعني

أنت تنظر نحو الأفق، نحو الجنوب، حيث المدينة تنتهي وتبدأ الحقول، وحيث تقف على تلة صغيرة بقايا بناء قديم، خان مهدّم من أيام القوافل، الخرابة.

وأرى في عينيك ما تفكر فيه، ولد صغير

حسنًا، حسنًا، سأريك الولد، لكن بعدها ستأتي معي إلى الأسفل، إلى حيث يجلس الملك، لأن هناك، يا صاحبي، ستعرف أخيرًا من أنت

طرطوش

قلت لك إن الوقت عندنا ليّن كالعجين، انظر إلى السماء قبل لحظة كانت سوداء، وكان القمر نصفًا مائلًا فوق مئذنة الجامع، الآن، انظر، الشمس تغيب، أفق برتقالي محمرّ، كجرح طازج، وأصوات المدينة تتصاعد من حولنا، سيارات، وباعة، وأطفال يركضون.

ثم يرتفع أذان المغرب، ثم ينطفئ الضوء، ثم يرتفع أذان العشاء، كأن أحدًا يقلّب صفحات كتاب بسرعة

لا تقلق على جسدك، هو ما زال ممددًا على بلاط الحمّام، وما زالت الساعة في بيتك الثالثة وعشر دقائق، ما تراه الآن هو "غد" الشيخ مرعي، استعرناه منه قليلًا.

نحن نستطيع أن نفعل ذلك، نقفز إلى حيث نريد، بشرط ألّا نبقى طويلًا

نحن الآن على شجرة الليمون، في الفناء الداخلي لبيت الشيخ مرعي

نعم، الخدم ما زالوا يبحثون عنك، لكنهم يبحثون في الأزقة، في الأسطح، في المقابر، لا أحد منهم يفكر أن يبحث هنا، في قلب البيت، ثم شجرة الليمون هذه قديمة، زرعتها أم آمنة قبل أن تموت، وفيها شيء من يديها، يخفينا.

اثبت هنا، لا تتحرك

الفناء صغير، مربع، مرصوف بالحجر، في وسطه بركة ماء صغيرة جفّت منذ سنين، وفي قاعها أوراق يابسة، وعلى الجدران حولنا نوافذ البيت، كلها مظلمة إلا واحدة.

نافذة آمنة، الضوء الذهبي يخرج منها كما يخرج البخار من قدر يغلي

ثم يفتح باب الصالة، ويخرج الشيخ مرعي

يلبس جلبابًا أسود هذه المرة، لا عمامة، ولحيته، يبدو كأنه لم يمشطها، يحمل في يده مجمرة صغيرة، يتصاعد منها دخان رمادي كثيف، يضعها على حافة البركة.

ويقف، وينتظر

اسمع، هل تسمع؟ من بعيد، من خارج البيت، من خارج الحيّ، صوت حديد يُجرّ على حجر

يقترب، يقترب، الأرض تحت الشجرة ترتجف قليلًا مع كل خطوة، والخدم الثلاثة، يخرجون من الصالة، يتراجعون إلى زوايا الفناء، ينكمشون، يخنون حتى تلامس جباههم الأرض.

إنهم خائفون، حتى هم



ثم يتشقق الجدار الشرقي للفناء، ويذوب كشمع يقترب من نار، الحجارة تسيل إلى الأسفل، بطيئة ولامعة، وتترك فتحة كبيرة، ومن الفتحة، يدخل

طرطوش

لن أحاول أن أصفه لك كله، سأقول فقط ما ستتذكره حين تحاول أن تنام في الليالي القادمة

إنه طويل، بطول الجدار، ونحيل كهيكل عظمي ملفوف بجلد رقيق، والجلد، بلون الحديد المحترق، أسود يميل إلى الأزرق، ولامع، كأنه مدهون بزيت

يمشي منحنيًا، لأن ظهره طويل جدًا، وذراعاه تتدليان حتى الأرض، وأصابعه تُجرّ على الحجر، هذا الصوت الذي سمعته، صوت أظافره الحديدية، ورأسه صغير، كرأس طفل، وفيه عين واحدة فقط، في المنتصف، كبيرة، صفراء، بحدقة عمودية كعين القطة.

والعين الأخرى، مكانها حفرة سوداء، خيطت بخيط أحمر

أما الرائحة، فلا أستطيع أن أصفها، رائحة كهف قديم لم يدخله أحد منذ ألف سنة

يقف طرطوش أمام الشيخ مرعي، ينحني الشيخ

"أهلًا بسيد الأرصاد"

طرطوش لا يرد، عينه الواحدة تدور في الفناء، تمرّ بالخدم المنكمشين، بالبركة الجافة، بالنوافذ، بشجرة الليمون، تتوقف عند الشجرة لحظة واحدة، ثم تتحرك، إلى النافذة المضيئة.

"هناك،" يقول طرطوش

صوته، كصوت باب حديدي يُفتح في قبو

"هناك، الصوت"

"نعم"

"لا أستطيع أن أدخل"

"أعرف، سأُخرجها"

يمشي الشيخ مرعي إلى الدرج، يصعد، ونسمعه يقف عند باب غرفتها

"آمنة، يا ابنتي"

"نعم يا أبي؟"

"انزلي قليلًا، هناك من يريد أن يراك"

"الآن يا أبي؟ الوقت متأخر"

"ضيف مهم يا ابنتي، لن يطيل، انزلي"

صمت، ثم صوت خطوات خفيفة، خطوات حافية على الحجر البارد

آمنة تنزل الدرج، تمسك بالحائط بيد، وبذراع أبيها باليد الأخرى، ثوبها الرمادي، جديلتها الطويلة، وجهها المستدير، وعيناها البيضاوان، مفتوحتان على لا شيء، لكنها تعرف

أرى ذلك في وجهها، في الطريقة التي تشدّ بها أصابعها على ذراع أبيها، في الطريقة التي تتوقف بها عند آخر درجة، وتشمّ الهواء

"أبي،" تهمس، "ما هذه الرائحة؟"

"بخور يا ابنتي، بخور جديد"

"لا يا أبي، هذه ليست رائحة بخور"

الشيخ مرعي يقودها إلى وسط الفناء، إلى جانب البركة، ويقف خلفها، يضع يديه على كتفيها، وطرطوش، يتقدم خطوة

أنت تتحرك، لا! ابقَ مكانك!

أنت لا تسمعني، أنت تمدّ يدك نحو الغصن الذي فوقك، نحو ليمونة صفراء كبيرة

لا تفعل

تقطفها، نعم، تقطفها، أصابعك السوداء المحترقة تمسك الليمونة، وتشدّ، والغصن يهتز، والليمونة تنفصل، وترميها

تسقط الليمونة في البركة الجافة، صوت ارتطام صغير، على الأوراق اليابسة، صوت صغير للغاية، لكنه في هذا الصمت يدوّي كالرعد

ترفع آمنة رأسها، تدير وجهها نحو الصوت، نحو البركة، ثم نحو الشجرة، نحونا، وأرى شفتيها تتحركان

"أنت،" تهمس، "أنت هنا"

ثم تفهم، أرى ذلك في وجهها، في الطريقة التي يتغير بها تعبيرها، من الحيرة، إلى الفهم، إلى الرعب، وتبدأ تقرأ

صوتها يرتفع في الفناء، والخدم الثلاثة في الزوايا، يصرخون كالحيوانات المذبوحة، يتلوّون على الأرض، وأرى الدخان يتصاعد من أجسادهم

وطرطوش يتراجع خطوة، عينه الواحدة تضيق، ويرفع ذراعه الطويلة أمام وجهه، كمن يحمي نفسه من ريح رملية

إنها تنتصر! أترى؟

ثم يد الشيخ مرعي، تنتقل من كتفها، إلى فمها

يغطي فمها بكفّه، يضغط، وصوتها ينقطع

آمنة تتجمد، جسدها كله يتصلّب، يداها ترتفعان إلى يد أبيها، تحاولان أن تبعداها، لكنها ضعيفة، نحيلة، وهو رجل كبير قوي

"سامحيني يا ابنتي،" يقول الشيخ مرعي

صوته مكسور، ودموع حقيقية، تنزل على لحيته الرمادية

"سامحيني، سامحيني، ستعود إليك عيناك، والله ستعودان، لكن سامحيني"

ولاحظ ماذا حدث حين قالها، حين قال تلك الكلمة، تلك الكلمة التي أقسم بها، يده التي على فمها، دخنت، دخان أبيض رفيع، وصرخ الشيخ من الألم، لكنه لم يرفع يده.

وتقدم طرطوش

انحنى فوق آمنة، رأسه الصغير اقترب من وجهها، عينه الواحدة تنظر في عينيها البيضاوين، ثم رفع إصبعًا واحدًا، إصبعًا طويلًا أسود، بظفر حديدي، ووضعه على حلقها.

لا أريدك أن ترى هذا، لكنك ترى

دخل الإصبع بلا جرح، بلا قطرة دم، دخل كما يدخل الإصبع في الماء، وآمنة ارتعشت، ارتعاشة طويلة، من رأسها إلى قدميها، وعيناها البيضاوان اتسعتا

ثم خرج الإصبع، وفي طرفه، خيط

خيط فضيّ لامع، رفيع كشعرة، يتلوّى في الهواء كأنه حيّ، ويصدر منه، ضوء خافت، وصوت بعيد جدًا، كصدى أغنية سمعتها في طفولتك، صوتها

لفّ طرطوش الخيط حول إصبعه، لفّه، ولفّه

والخيط يخرج من حلقها، طويلًا، لا ينتهي، عشرون سنة من القراءة، عشرون سنة من الليالي، كل حرف قرأته، كل آية، كل دعاء دعته لأبيها في الظلام وهي لا تعرف ما يفعله.

ثم انتهى، ووضع طرطوش الخيط الملفوف في فمه، وابتلعه

رفع الشيخ مرعي يده عن فمها، كفّه محروقة، سوداء، كيدك، وآمنة فتحت فمها، وحاولت أن تتكلم، فخرج هواء فقط، بلا صوت ولا همس

وقفت هناك، في وسط الفناء، بثوبها الرمادي وجديلتها الطويلة، وفمها مفتوح، ويداها على حلقها، وقفت بلا بكاء ولا صراخ، ثم استدارت ببطء، ومشت نحو الدرج، وحدها، تتحسس الحائط بيدها.

وصعدت، ولم تلتفت إلى أبيها

ولكي تفهم ما رأيته للتو، يجب أن تعرف شيئًا عن طرطوش، العين المخيطة بالخيط الأحمر، لم يولد بها هكذا

قبل خمسمئة سنة، كان طرطوش خادمًا لساحر من الشام، وأرسله سيده ليفتح رصدًا في صحراء بعيدة، وكان الرصد هناك أفعى من نحاس بطول قافلة، فقاتلها طرطوش ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث عضّت عينه اليسرى، فاقتلعها بيده، ورماها لها لتأكلها، وانشغلت بها لحظة، وفي تلك اللحظة فتح الكنز.

ثم خاط الحفرة بخيط من شعر سيده، ومن يومها لا يُرسل طرطوش إلا إلى الأرصاد، يعرفها كما يعرف الجزار عظام الشاة، يعرف أين تنام، وكيف تُخدع، ومتى تجوع، ويعرف أيضًا أن الأرصاد القديمة لا تُفتح بالحيلة وحدها.

تُفتح بالدم، ولهذا، حين قال أبو زريق في السوق إن طرطوش لا يحب الأطفال إلا لشيء واحد، لم يكن يمزح

الشيخ مرعي سقط على ركبتيه، بجانب البركة الجافة، وبكى بصوت عالٍ، كما يبكي الأطفال

أما طرطوش، فاستدار غير مكترث، عينه الواحدة تدور في الفناء مرة أخرى، وتتوقف، على شجرة الليمون

هذه المرة، تبقى، ثابتة، علينا

"قرين،" يقول طرطوش بصوته الحديدي

أنا لا أرد

"أعرف أنك هنا يا قرين، أشمّك منذ دخلت، وأشمّ صاحبك"

صمت

"لا تقلق، لن أؤذيه، أنا لا أؤذي بضاعة الملك"

"سيدنا ينتظرك في الأسفل،" يكمل طرطوش، "منذ عشرين سنة وهو ينتظرك، ينتظر أن تأتيه بما وعدت، وقد طال الانتظار"

ثم يقترب خطوة

"والليلة، أرى أنك وفيت"

ثم استدار، ومشى نحو الفتحة في الجدار، والحجارة الذائبة، بدأت تعود إلى مكانها خلفه، كأن شيئًا لم يحدث، والشيخ مرعي، ما زال يبكي

لا ترمقني بهذه النظرة

قلتُ أبعد عينيك عني!

ماذا قال؟

"بضاعة الملك"

"ما وعدت"

"عشرون سنة"

أعرف ما تفكر فيه، أعرف بالضبط ما يدور في رأسك الآن

وأقول لك: طرطوش خادم، والخدم يكذبون، يقولون أي شيء ليزرعوا الشك، هذا ما يتغذون عليه، أراد أن يفرّق بيننا، أن يجعلك تخاف مني، لأنه يعرف أنك إن خفت مني، ستهرب، وإن هربت، ستضيع هنا.

وسيجدك

ثق بي

وحين قلتها، فاجأني أنني أعنيها، إن هربتَ سيجدك طرطوش، والفكرة وحدها جعلت شيئًا في صدري ينقبض، كما انقبض يوم أمسكتك من قميصك على حافة السطح وأنت في الرابعة.

لكن تلك حكاية أخرى، لن أحكيها الآن

لا تقل شيئًا، أعرف أنك تحاول أن تقول شيئًا، أرى شفتيك تتحركان، لكنك لا تجد الكلمة، تلك الكلمة، التي قالها الشيخ مرعي حين أقسم، فاحترقت يده.

تحاول أن تتذكرها، ولا تستطيع

غريب، أليس كذلك؟ كلمة تقولها كل يوم، منذ كنت طفلًا، ولا تستطيع أن تتذكرها الآن

لا تقلق، هذا طبيعي هنا، العالم المرصود مبنيّ من نسيانها، ألم أقل لك؟ ستتذكرها حين نعود، أعدك

هيا بنا، الولد ينتظر، وأنت تريد أن تراه، أليس كذلك؟

علامة الزُّهري

في الطرف الجنوبي من المدينة، حيث ينتهي الإسفلت ويبدأ التراب هناك حيّ لا يذكره أحد في نشرات الأخبار إلا حين يغرق في الشتاء، يسمونه حيّ المدابغ، لأن المدابغ كانت هنا قبل خمسين سنة، ثم رحلت وتركت وراءها رائحة الجلد المنقوع والجير، وتركت قنوات مكشوفة ما زال ماؤها أخضر، وبيوتًا من البلوك غير المطليّ تتراكم فوق بعضها كأسنان مكسورة.

هنا يعيش يوسف، وانظر، حتى من بعيد، تستطيع أن ترى بيته

بيت صغير من غرفتين، فوق سطحه خزان ماء أزرق وصحن لاقط مائل، ويخرج من سقفه شيء لا يراه أحد غيرنا: ضوء أحمر خافت، ينبض ببطء، كضوء منارة على شاطئ مهجور، وحول البيت، على الأسطح المجاورة، على أعمدة الكهرباء، على الجدران المتهالكة، تجلس أشكال صغيرة وتنظر إليه.

إنها تنتظر

بعضها جاء من الحيّ القديم، وبعضها من المقبرة، وبعضها من أماكن لا أعرفها، ساكنون صغار بعيون صفراء، هامات تتخذ أشكال قطط سوداء، وخادم أو اثنان بسلاسل مقطوعة، هربا من أعمال احترقت، ويبحثان الآن عن سيّد جديد، لا يقتربون من البيت، لا يجرؤون، الطفل مُعلَّم، والعلامة تقول: هذا لغيرك.

لكنهم يجلسون، ويراقبون

كما تجلس الغربان على السور حين ترى شاة مريضة في الحظيرة، وتعرف أن الراعي سيذبحها قريبًا، وأن شيئًا ما سيبقى بعد الذبح، كل من في العالم المرصود يعرف الآن أن في هذا البيت طفلًا عليه علامة، وأن أحدًا قد اشتراه.

تسألني عن العلامة

جداتكم يسمونها "الزُّهري"، طفل يولد وفيه شيء مختلف، علامة صغيرة لا ينتبه لها إلا من يعرف، خط واحد مستقيم يقطع كفّه من طرف إلى طرف، نقطة سمراء في بياض العين اليسرى، ولادة في ليلة محددة من الشهر، حين يكون القمر في منزل معيّن.

الناس يقولون إن الزهري مبارك، يقولون إن الجن تحبه وتخدمه، يقولون إنه يرى ما لا يرى غيره، وإن الكنوز تنفتح له، نصف هذا صحيح، الكنوز تنفتح له فعلًا.

كما ينفتح الفم للّقمة

الأرصاد القديمة، يا صاحبي، عُقدت بعهود، والذين عقدوها كانوا حذرين، أرادوا أن يحرسوا كنوزهم من اللصوص، فاختاروا شرطًا لا يستطيع أي لصّ أن يحققه بسهولة، دم طفل نادر، واحد في كل عشرة آلاف، واحد في كل جيل في المدينة.

ولهذا بقيت الكنوز في الأرض مئات السنين، حتى يولد زهري، في مدينة فيها ساحر طمّاع، وقرين صبور

ادخل

البيت من الداخل أصغر مما توقعت، غرفة فيها فرشتان على الأرض وتلفاز صغير على صندوق خشبي، ومطبخ ضيّق فيه موقد بعينين وثلاجة تئنّ، على الجدار صورة رجل شاب بقميص عسكري، وتحتها شريط أسود قديم.

الأب، مات قبل أربع سنوات، لا أعرف كيف، لا يهم، وعلى إحدى الفرشتين تنام امرأة، حليمة، أم يوسف، انظر إليها

امرأة في الثلاثين تبدو كأنها في الخمسين، يداها خشنتان، متشققتان، أظافرها مكسورة، تنظف بيوت الأغنياء في الحيّ الجديد من الصباح حتى المغرب، ثم تعود لتخيط ثيابًا للجيران حتى منتصف الليل، ونامت الليلة وهي جالسة، والإبرة ما زالت في يدها، والخيط ممتدّ من الثوب على حجرها إلى الأرض.

على شفتيها، أثر كلمات

كانت تقرأ قبل أن تنام، أرى الضوء الذهبي الخافت حولها، لكنه ضعيف، رقيق جدًا، متقطع، كأنها قرأت نصف ما تقرؤه عادة، ثم غلبها التعب، والضوء الذهبي، لا يمتد إلى الفرشة الأخرى.

على الفرشة الأخرى، يوسف، وهو مستيقظ، طبعًا مستيقظ، الأطفال الذين عليهم علامة لا ينامون جيدًا، يرون الكثير

جالس في فرشته، ركبتاه إلى صدره، وذراعاه حولهما، سبع سنوات، نحيل، بشعر أسود قصير، ووجه أسمر، وعينان واسعتان، وفي بياض عينه اليسرى، تراها؟ نقطة سمراء صغيرة، كحّبّة سمسم.

وهو ينظر إلينا، إليك أنت وحدك

"من أنت؟" يسأل بصوت هامس، حتى لا يوقظ أمه

أنت لا تجيب، لا تعرف كيف

"أنت لست مثلهم،" يقول يوسف، ويميل برأسه، "الذين يجلسون في الخارج على الجدران، إنهم قبيحون، أنت مثل الناس"

ثم ينظر إلى يدك

"يدك محروقة"

انظر إلى يدك

نعم، الأثر الأسود، وصل الآن إلى منتصف ساعدك، والجلد هناك لم يعد يشبه الجلد، صار كقشرة شجرة محترقة، وحين تحرك أصابعك تسمع صوتًا خفيفًا، كصوت الفحم حين ينكسر.

ولا تشعر بألم، هذا ما يقلقني أكثر

"هل تؤلمك؟" يسأل يوسف

تهزّ رأسك

"أمي تقول إن آلمك شيء فعليك أن تقرأ عليه،" يقول بجدية، كأنه يعلّمك درسًا، "تقرأ وتنفخ، هكذا"

ويضمّ يديه الصغيرتين أمام فمه، وينفخ فيهما، ثم ينظر إليك منتظرًا

أنت تحاول، أراك، تضمّ يديك، السليمة والمحترقة، وتفتح فمك، ولا يخرج شيء، لا تعرف ماذا تقرأ

الكلمات التي كانت أمك تقرؤها عليك حين كنت تمرض، التي تحفظها منذ كنت في الخامسة، التي قلتها في كل امتحان وكل سفر وكل ليلة خفت فيها من الظلام.

اختفت، كأن أحدًا مسحها من رأسك بممحاة

قلت لك، هذا طبيعي هنا

يوسف ينظر إليك طويلًا، ثم يقول شيئًا يجعلك ترتجف:

"أنت مثلي، نسيت"

"وأنا أيضًا نسيت،" يكمل بصوت صغير، "منذ أن أخذتني أمي إلى الشيخ صرت أنسى، كنت أحفظ سورًا كثيرة، كانت أمي تحفّظني كل يوم واحدة، الآن لا أتذكر إلا أولها، أقول أول كلمة، ثم يذهب كل شيء."

ويرفع يده الصغيرة إلى صدره، ويخرج من تحت قميص النوم، خيطًا أسود، معلّقًا حول عنقه، وفي طرفه، صرّة صغيرة من الجلد، مخيطة بإحكام، بحجم عقلة الإصبع.

"الشيخ أعطاني هذا، قال إنه يحميني من الخوف في الليل"

انظر إليه بعينيك الأخريين، انظر

الصرّة تلمع، بالأحمر

الضوء الأحمر نفسه الذي يخرج من سقف البيت، النبض البطيء نفسه، وأرى الآن، أرى خيطًا رفيعًا للغاية، يخرج من الصرّة، ويصعد عبر السقف، ويمتد في الهواء، شمالًا، نحو الحيّ القديم، نحو البيت ذي الباب الأزرق.

سمّوه حجابًا، وهو طوق على عنق شاة، حتى يعرف الجزار أي شاة في القطيع

جاءت به أمه إلى الشيخ مرعي قبل شهرين، كان يوسف يستيقظ كل ليلة صارخًا، يقول إن هناك رجلًا طويلًا يقف عند النافذة، ظنّت الأم أنه "مخوّف"، سمعت من جارتها عن الشيخ الذي في الحيّ القديم، الذي يعالج بالقرآن، والذي ابنته العمياء تقرأ فيبكي الناس.

ذهبت، ودفعت ما ادّخرته ثلاثة أشهر، والشيخ مرعي، حين رأى الطفل، حين أمسك يده الصغيرة ورأى الخط المستقيم على كفّه، ونظر في عينه ورأى النقطة السمراء، ابتسم، وقال: "ابنك مبارك يا أختي، مبارك، لكن عليه عين، دعيني أكتب له حجابًا."

أنت تمدّ يدك المحترقة، نحو الخيط الأسود حول عنق يوسف

انتظر

قلت انتظر!

اسمعني قبل أن تفعل شيئًا، اسمعني فقط لحظة

إن نزعت هذا الطوق، سيعرف الشيخ مرعي فورًا، الخيط متصل به، سيشعر به ينقطع، كما تشعر أنت حين ينقطع خيط طائرة ورقية في يدك، وحين يعرف، لن ينتظر حتى الغد.

سيأتي الليلة، هو وطرطوش، والأم نائمة، والضوء الذهبي حولها ضعيف، ولن يستطيع أحد أن يمنعهما، وأنت، ماذا ستفعل أنت؟ أنت شيء بين الروح والجسد، بيد محترقة، ولا تتذكر كلمة واحدة تحمي بها نفسك.

ستشاهد فقط، مرة أخرى

أنت تتوقف، يدك معلّقة في الهواء، على بعد شبر من الخيط، وأرى في وجهك صراعًا

ويوسف ينظر إلى يدك، ثم إلى وجهك، ثم يفعل شيئًا لم يتوقعه أحد منا، يمدّ يده الصغيرة، ويمسك يدك المحترقة

يمسكها فقط، دون أن يحترق أو يصرخ، بأصابعه الصغيرة الدافئة، ويضغط عليها قليلًا، ولأول مرة منذ خرجت من جسدك، تشعر بشيء، دفء

دفء حقيقي، يصعد من أصابعه إلى أصابعك، ومن أصابعك إلى معصمك، ومن معصمك إلى ذراعك، وأرى الأثر الأسود على جلدك، يتراجع، قليلًا، ميليمترًا واحدًا

"ما اسمك؟" يسأل يوسف

وتفتح فمك لتجيب

ولا تجد اسمك

تحاول

أراك تحاول، شفتاك تتحركان، حاجباك ينعقدان، تبحث في رأسك، في كل زاوية، في كل ذكرى، صوت أمك وهي تناديك من المطبخ، اسمك على دفتر المدرسة، اسمك على بطاقتك الشخصية، اسمك في فم حبيبتك الأولى.

ثقب أبيض فقط، حيث كان اسمك

هذا لم أخبرك به، أعترف

العالم المرصود يأكل الأسماء كلها، والاسم الأكبر أولها، على مهل، كلما بقيت هنا أطول، نسيت أكثر، أولًا الكلمات التي تحميك، ثم أسماء من تحب، ثم اسمك.

ثم وجهك

لكن لا تقلق، حين نعود، سيعود كل شيء

أعدك

يوسف ما زال ممسكًا بيدك، وهو ينظر إليك بشفقة، شفقة طفل في السابعة

"ما في مشكلة،" يقول، "أنا بسمّيك، بسمّيك، صاحبي"

صاحبي، الكلمة التي أناديك بها منذ بداية الرحلة

سمعتها من فم طفل في السابعة، فارتجف فيّ شيء قديم، شيء ظننته مات تحت عشرين سنة من التعطيل، أنت لا تعرف من أين جئتُ بهذه الكلمة، ولماذا لا أناديك بغيرها.

سأخبرك يومًا، إن بقي لنا يوم

ثم يحدث شيء آخر، من النافذة الصغيرة فوق الفرشة، النافذة ذات الزجاج المكسور المرقّع بالكرتون، تدخل فراشة بيضاء، صغيرة، بجناحين رقيقين كالورق، وتطير في الغرفة، حولك، حول يوسف، حول الأم النائمة.

ثم تحطّ على كتفك

أنا أعرف هذه الفراشة، أعرف رائحتها، قطن، وماء نبع، ونحاس

لا تستمع إليها!

لكنك تستمع، لأن الفراشة تقترب من أذنك اليمنى، الأذن التي لم أهمس فيها أبدًا، وتهمس بصوت رقيق نحيط من حرير:

"اسأله عن العشرين سنة"

ثم تطير، تخرج من النافذة، وتختفي في الظلام

نعم، كانت هي، سلمى، الجنية في القفص، أرسلت إليك رسالة

وأنت تنظر إليّ الآن، ويوسف ينظر إليّ أيضًا، للمرة الأولى، يراني، أرى ذلك في عينيه، يراني كما أنا، ويتراجع إلى الخلف، ويترك يدك، ويلتصق بالجدار.

"هذا،" يهمس، وصوته يرتجف، "هذا هو، هذا الذي يقف عند النافذة كل ليلة"

وتلتفت إليّ، وللحظة واحدة فقط، ترى ما يراه يوسف، أعرف أنك رأيته، رأيت عينيك تتسعان

رأيتني طويلًا، أطول من الغرفة، منحنيًا تحت السقف كما ينحني الأب الرمادي في بيت أم فاروق، نحيلًا كعود قصب جاف، ووجهي، وجهك أنت، لكنه ممطوط إلى الأسفل، كوجه في مرآة مقعّرة، والفم يمتد حتى منتصف الخدين، والعينان واسعتان مستديرتان كعيني بومة، لا ترمشان.

ثم أعود إلى الشكل الذي تعرفه، شبيهك، بابتسامة أوسع بقليل فقط، لكنك رأيت، ولن تنسى، حسنًا، يكفي ألعابًا

تريد أن تعرف عن العشرين سنة؟ تريد أن تعرف ماذا قصد طرطوش بـ"ما وعدت"؟ تريد أن تعرف من أنت؟

تعال، سأريك الصرّة الخضراء

الصدّة الخضراء

هل تعرف أين تذهب الذكريات حين تنساها؟ حين تنسونها، تنزل إلى طبقة تحت الطبقة، وتستقر هناك كالطمي في قاع نهر، كل ما رأيته في حياتك موجود في مكان ما، كل وجه، كل رائحة، كل كلمة سمعتها وأنت في المهد قبل أن تفهم معنى الكلمات.

وأنا أعرف الطريق إلى ذلك القاع، لأنني كنت هناك حين وُضع فيه كل شيء

أعطني يدك، السليمة، ولا تفلتها مهما رأيت، إن أفلتّها في ذاكرتك، ستبقى هناك، ستعيش اليوم نفسه مرة بعد مرة، كفراشة في قارورة، ولن يعرف أحد أين ذهبت.

جاهز؟ اقفز

غرفة

جدرانها مطلية بلون أخضر فاتح، والطلاء منتفخ في الزاوية العليا بسبب الرطوبة، سرير حديدي أبيض، نافذة بستارة من الدانتيل الأصفر، ورائحة ديتول ودم وحليب، مستشفى الولادة القديم، الذي هدموه قبل عشر سنوات وبنوا مكانه مركزًا تجاريًا، وعلى السرير، امرأة شابة، شاحبة، شعرها مبلول بالعرق، تحتضن شيئًا ملفوفًا ببطانية بيضاء.

أمك، في الرابعة والعشرين، انظر كم كانت جميلة

وفي البطانية، نعم، أنت، عمرك ساعتان، وجه أحمر مجعّد، وعينان مغمضتان، وفم صغير يتحرك كأنه يرضع حتى في النوم، وانظر خلف كتف الرضيع، في الظل بين البطانية والوسادة.

شيء صغير، بحجم الرضيع تمامًا، ملتصق به، يشبهه، لكن عيناه مفتوحتان، لا ترمشان

هذا أنا، يوم ولدنا

لا تحدّق فيّ هكذا، كنت صغيرًا ولطيفًا، أليس كذلك؟ كلنا نولد صغارًا ولطفاء

باب الغرفة يُفتح، تدخل امرأة عجوز، بثوب أسود ومنديل أبيض، تحمل في يدها كيسًا من القماش فيه برتقال، وفي يدها الأخرى مسبحة، جدتك

جدتك الحقيقية، قارنها بتلك التي رأيتها في المقبرة خلف القبر، في الظل، ترى الفرق؟ انظر إلى الضوء الذهبي، يحيط بها كما تحيط الهالة بالقمر في ليلة صافية، وحين دخلت، أنا الصغير الملتصق بك في البطانية، انكمشت.

أترى؟ انكمشت تحت كتفك كفأر رأى قطة

تقترب جدتك من السرير، تقبّل جبين أمك، ثم تنحني على البطانية، وتنظر إليك طويلًا، وعيناها تدمعان، ثم تضع فمها عند أذنك اليمنى، وتهمس، لا أسمع ما تقول، أنا لا أسمع هذه الكلمات أبدًا، أسمع فقط ضجيجًا، كصفير، كإبر في أذنيّ.

لكنك أنت تسمعها الآن، أراك تسمعها، أرى عينيك تمتلئان، إنها الأذان، تؤذّن في أذنك، أول ما سمعته في الدنيا

ثم تنتقل إلى أذنك اليسرى، الأذن التي أعيش خلفها، وتهمس فيها أيضًا، وأنا الصغير، أصرخ، صرخة لا يسمعها أحد غيري، وأتراجع إلى الخلف، وأظل هناك، في الظل، أرتجف، حتى تخرج.

دعنا نتقدم قليلًا

الغرفة نفسها، بعد يومين، أمك تجلس في السرير، وأنت في حضنها ترضع، والغرفة مليئة بالزوار، خالاتك، عماتك، جارات، الضحك والزغاريد والحلوى والصحون الملفوفة بورق الألمنيوم.

ثم تدخل امرأة، طويلة، أنيقة، بثوب أزرق غالٍ وحقيبة يد جلدية، شعرها مصبوغ بلون الحنّاء ومرفوع في كعكة كبيرة، زوجة عمك

"سميرة"

لا تذكرها؟ طبعًا لا، سافرت مع عمك إلى الخارج حين كنت في الثالثة، ولم تعودا، ماتت هناك قبل سنوات، أظن أنك سمعت أمك تذكر اسمها مرة أو مرتين، بصوت خافت، وبوجه متجهم.

وهل تعرف كيف ماتت؟

في شقة واسعة في مدينة باردة، وحدها، بعد أن تركها عمك وتزوج امرأة أخرى أنجبت له ثلاثة أولاد، ماتت في الخمسين، بمرض لم يعرف الأطباء اسمه، مرض جعلها تذبل ببطء، سنة بعد سنة، كنبتة نسيها أصحابها على شرفة في الشتاء.

وفي آخر شهورها، كانت تقول للممرضة إنها ترى طفلًا رضيعًا يجلس في زاوية الغرفة، وينظر إليها، ولا يرمش، ذلك الرضيع غيري، أنا كنت مشغولًا بك.

لكن الأعمال، يا صاحبي، لها طريقة غريبة في العودة إلى من صنعها، كالحجر الذي ترميه في بئر، يغيب طويلًا، ثم تسمع صوته في القاع

سميرة تقترب، تقبّل أمك على الخدين، تبتسم ابتسامة واسعة

"مبارك يا حبيبتي، مبارك، حفظه الله لك"

ثم تخرج من حقيبتها شيئًا، وسادة صغيرة، من الساتان الأبيض، مطرزة بخيط ذهبي، عليها اسمك، بحروف منمّقة

"هدية للحلو،" تقول، "ضعيها تحت رأسه، ريشها طبيعي، جئت بها من الشام"

وتضع الوسادة تحت رأسك

انظر إلى الوسادة بعينيك الأخريين

نعم

داخل الوسادة، بين الريش، شيء صغير، صرّة من القماش الأحمر، فيها شعرات من رأس أمك، أخذتها سميرة من فرشاة الشعر في حمّام بيتكم قبل أسبوع، وقطعة صغيرة من الحبل السري، سرقتها من الممرضة بورقة نقدية، وورقة مطوية مكتوب عليها بحبر أحمر، بخط ساحر في قرية بعيدة، كلمات لن أقرأها لك.

وعلى الصرّة، سبع عقد

لماذا؟ تسألني، لماذا تفعل امرأة هذا برضيع عمره يومان؟

لأنها كانت عاقراً

سبع سنوات متزوجة من عمك، ولم تحمل، ذهبت إلى كل الأطباء، وكل الشيوخ، وكل العرّافات، ثم تزوج أخو زوجها، أبوك، وفي السنة الأولى حملت زوجته، وكانت سميرة تنظر إلى بطن أمك وهو يكبر شهراً بعد شهر، وشيء في صدرها يكبر معه.

شيء أسود، رائحته كلحم ترك في الشمس يومًا كاملًا

والعمل كان بسيطًا، "عمل تعطيل"، من أرخص الأعمال في دكان أبي زريق، أرحم الأعمال في ظاهره، يعطّل فقط

كل شيء يبدؤه الطفل، لا يكتمل، كل باب يقترب منه، يُغلق قبل أن يصل، كل فرحة، تُقطع في منتصفها، حياة كاملة من "تقريبًا"، من "كاد"، من "في اللحظة الأخيرة"، حياة يعيشها صاحبها وهو لا يعرف لماذا يشعر دائمًا أنه يركض في مكانه.

أنت تفهم الآن، الوظيفة التي ضاعت في اللحظة الأخيرة، الخطوبة التي انفسخت قبل العرس بأسبوع، المشروع الذي أفلس قبل أن يبدأ، المنحة التي حصل عليها زميلك الأقل منك.

كل شيء، كل شيء في حياتك، كان "تقريبًا"

لا تبكِ، لم أنتهِ بعد

الآن، تقدّم معي، ثلاثة أشهر

بيت جدتك

البيت القديم ذو الفناء والنافورة الصغيرة وشجرة النارنج، تعرفه، قضيت فيه نصف طفولتك، تذكر رائحة الياسمين على الجدار؟ تذكر القطة الرمادية التي كانت تنام

على حافة النافورة؟ أنت هنا، رضيع في سرير خشبي صغير بجانب سرير جدتك، أمك تركتك عندها يومين لأنها مريضة بالحمى.

والوسادة البيضاء المطرزة، تحت رأسك، والليل، ليل الخميس

جدتك تستيقظ، في الثالثة فجرًا، لا تعرف لماذا، تقول لنفسها: "سبحان الله، قلبي يحدّثني بشيء" تقوم لتتوضأ، تمرّ بسريرك، وتتوقف

أنت تبكي، بكاء خافت، غريب، طويل، متقطع، أقرب إلى الأنين، ووجهك أزرق قليلًا

وتنظر جدتك إلى السرير، ولا ترى شيئًا غريبًا، لكنها تمدّ يدها، وتلمس الوسادة، وتسحب يدها بسرعة، كأنها لمست جمرًا

لا تعرف ما الذي في الوسادة، لم تره بعينيها، لكنها شعرت به، كما تشعر الأم بأن ابنها في خطر وهو في بلد آخر، تأخذ الوسادة.

تحملها إلى المطبخ، تأخذ مقصًّا، وتفتحها

الريش يتطاير في كل مكان، ريش أبيض يتساقط كالثلج على أرض المطبخ، وفي وسط الريش، الصرّة الحمراء، بعقدها السبع

جدتك تنظر إليها، وتعرف، لا أحد علّمها، لم تقرأ كتبًا عن السحر، لكنها عاشت سبعين سنة، وسمعت، ورأت، وعرفت، ترتجف يدها، ثم تفعل شيئًا لم أتوقعه أنا.

تفكر في حرقها، ثم في فكّها، وتعرف أن الحرق والفكّ يحتاجان شيخًا يعرف ما يفعل، وهي لا تعرف أحدًا، ولا تثق بأحد، لأن من يحرق العمل قد يكون هو نفسه من صنعه.

تأخذ قطعة من قماش أخضر، من ثوب قديم لها، ثوب الحج، الثوب الذي لبسته حين طافت بالكعبة قبل عشرين سنة، وتلفّ الصرّة الحمراء فيه، وتربطها بخيط، خيط أحمر من سجادة صلاتها، ثم تجلس على أرض المطبخ، وسط الريش الأبيض، والصرّة في حجرها، وتقرأ عليها.

تقرأ حتى الفجر، ثم تقرأ بعد الفجر، ثم تضعها في خزانتها العلوية، في الغرفة التي تنام فيها، وتغلق عليها

ومن تلك الليلة، كل ليلة خميس، لمدة اثنتي عشرة سنة، كانت جدتك تفتح الخزانة، وتخرج الصرّة الخضراء، وتقرأ عليها، لم تخبر أحدًا، لا أمك، لا أباك، لا أحد.

حبست العمل، عجزت عن قتله، فحبسته، سجنته في ثوب حجّها، وصارت سجّانته، كل خميس

لماذا الخميس؟ لأنها اكتشفت العمل ليلة خميس، ولأنها كانت امرأة بسيطة تحب المواعيد الثابتة

ولأن العمل المحبوس، كان يحاول أن يتحرر كل ليلة خميس بالذات، في ذكرى ليلة اكتشافه، كان يتلوّى داخل القماش الأخضر كأفعى في كيس، وهي كانت تعرف.

وكانت تقرأ عليه حتى يهدأ

وأنت كبرت في بيت جدتك، وكانت حياتك جيدة، هل تذكر؟ كنت الأول في صفك، كنت تفوز في كل مسابقة، كان الجميع يقولون إنك ستكون شيئًا كبيرًا.

لأن العمل كان محبوسًا

ثم، في الثانية عشرة، ماتت جدتك

ماتت في نومها، ليلة أربعاء، ودُفنت ظهر الخميس، وفي ليلة الخميس تلك، لم يفتح أحد الخزانة، لم يقرأ أحد على الصرّة، وبعد أسبوع، جاءت أمك وخالاتك لترتيب أغراض جدتك، أخذن الثياب للفقراء، أخذن الذهب القليل لتقسيمه، أخذن الصور والمصاحف.

ووجدت أمك، في الخزانة العلوية، صرّة خضراء قديمة مربوطة بخيط أحمر، ولم تفهم ما هي، ظنتها شيئًا من أشياء العجائز، حجابًا قديمًا، صرّة فيها تراب من مكة.

ورمتها في كيس القمامة

في تلك الليلة، ليلة الخميس، انفكّ العمل، وفي تلك الليلة، حبست دموعك في الجنازة، لأنني كنت فرحًا، لأنني كنت حرًّا

أترى الآن؟

لا ترى بعد، أعرف أنك لم ترَ، لأنك ما زلت تسأل نفسك سؤالًا واحدًا:

"وما علاقة القرين بكل هذا؟"

انظر إليّ، انظر إليّ جيدًا، في ذاكرة غرفة المستشفى، حين وُضعت الوسادة تحت رأسك، أين كنت أنا؟

ملتصقًا بك، في البطانية، بجانب الوسادة

وحين فتحت جدتك الوسادة في المطبخ، وأخرجت الصرّة الحمراء، ولفّتها في القماش الأخضر، وقرأت عليها حتى الفجر، من كان يصرخ؟

كنتُ أنا

العمل لا يعمل وحده يا صاحبي، يحتاج خادمًا يلتصق بالمعمول له، يعيش معه، يتغذى منه، يغلق أمامه الأبواب واحدًا واحدًا، وسميرة لم تكن غنية، "عمل تعطيل" رخيص، وخادمه أرخص من خدم أقفاص أبي زريق كلهم.

خادم موجود أصلًا، خادم يولد مع الطفل، وينام معه، ويرضع معه

القرين

ربطوني بالصرّة الحمراء يا صاحبي، ربطوني بالعقد السبع وأنا عمري يومان، صرت خادم عملك

وحين حبست جدتك الصرّة، حبستني معها، اثنتا عشرة سنة، وأنا أعيش في قماش أخضر، في خزانة مظلمة، أحترق كل ليلة خميس، اثنتا عشرة سنة، وأنا أسمعك تضحك في الفناء، وتلعب مع القطة الرمادية، وتنجح في المدرسة، وأنا محبوس.

اثنتا عشرة سنة

هل تفهم الآن لماذا كنت فرحًا يوم ماتت؟

والعشرون سنة؟ العشرون سنة يا صاحبي، هي ما بعد ذلك، هي العمر الذي مرّ منذ خرجتُ من القماش الأخضر، وفيها، وعدتُ ملك الأسفل بشيء

لكن هذه حكاية الفصل القادم، الآن، أفلت يدي، لا، أمزح، لا تفلتها، لم نخرج بعد من ذاكرتك

ولن نخرج إلا حين أقرر أنا

ليالي الخميس

ما زلنا في ذاكرتك لا تحاول أن تخرج، لن تعرف الطريق، ذاكرتك الآن متاهة من غرف متشابهة، وكل غرفة فيها يوم من أيامك، وكل يوم فيه باب يفتح على يوم آخر، لو مشيت وحدك هنا لظللت تمشي حتى تنسى أنك كنت تبحث عن مخرج.

امسك يدي، سأريك ما فعلته بك، ولن أعتذر، فالاعتذار كلمة من كلماتكم، ولا مكان لها هنا

الغرفة الأولى، صفّ دراسي، مقاعد خشبية، وسبورة خضراء، ونوافذ عالية بقضبان حديدية، ورائحة الطباشير والعرق والخوف، امتحان الشهادة الثانوية، مادة الرياضيات، وها أنت

ثمانية عشر عامًا، نحيل، بقميص أبيض مكوي بعناية، وشارب خفيف لم تحلقه بعد، الورقة أمامك، والقلم في يدك، وأنت تعرف الجواب، أرى ذلك في عينيك،

السؤال الأخير، الذي يحمل عشرين علامة، تعرف حلّه، حللت مثله في البيت عشرين مرة.

ثم تنظر إلى الورقة، والأرقام ترقص

تتحرك على الورق كالنمل، تتبادل أماكنها، الثلاثة تصير ثمانية، الإشارة الموجبة تصير سالبة، وأنت تحكّ عينيك، وتشرب ماء، وتنظر مرة أخرى، والأرقام ما زالت ترقص.

وانظر خلف كتفك الأيسر، أنا، أجلس على حافة مقعدك، وأصابعي على الورقة، أحرّك الأرقام واحدًا واحدًا، بهدوء، كمن يرتّب قطع شطرنج، ويرنّ الجرس، وتسلّم ورقتك والسؤال الأخير فارغ.

وتنقصك عن الطب أربع علامات

الغرفة الثانية

حديقة عامة في الربيع، أشجار الكينا، والممرات المرصوفة، والنافورة الكبيرة التي لا تعمل، وعلى مقعد حجري، أنت، في الثالثة والعشرين، وبجانبك فتاة، ليلى، نعم، ليلى.

أرى وجهك يتغير، أرى أنك ما زلت تحفظ ملامحها: شعرها البني المربوط بمنديل وردي، وغمّازتها اليسرى، وضحكتها التي كانت تخرج من أنفها قبل فمها،

كنت ستطلبها في ذلك اليوم، الخاتم في جيبك، اشتريته بمرتب شهرين، وكنت تتدرب على الكلمات منذ أسبوع أمام المرآة.

وتفتح فمك، وتنظر إليك ليلى، وتبتسم، ثم تتجمد ابتسامتها، تنظر إلى ما فوق كتفك، إلى شيء خلفك، وترى، في تلك اللحظة، للحظة واحدة فقط، وجهك أنت، واقفًا خلفك، بعينين لا ترمشان، وابتسامة أوسع قليلًا مما ينبغي.

تصرخ ليلى، تقوم وتركض

وحين تتصل بها في المساء، لا ترد، وحين تذهب إلى بيتها في اليوم التالي، يقول لك أخوها إنها لا تريد أن تراك، وحين تسأله لماذا، يقول إنها تقول إن فيك شيئًا يخيفها، ولا تعرف كيف تشرحه، بعد ستة أشهر تزوجت ليلى ابن خالها.

والخاتم ما زال في درجك، في علبة زرقاء صغيرة، تحت الجوارب

لا تبكِ، قلت لك، الدموع تتبخر هنا قبل أن تصل

الغرفة الثالثة

مكتب في الطابق العاشر من برج زجاجي، مقابلة عمل، الوظيفة التي كنت تنتظرها منذ تخرجت، المدير يبتسم لك، ويقلّب أوراقك، ويقول: "ممتاز جدًا" ثم يرنّ هاتفه.

ويخرج، ويغيب عشر دقائق، ويعود بوجه مختلف

"آسف، حصل تغيير في القرار، شكرًا لوقتك"

لن تعرف أبدًا ماذا قيل له في الهاتف، أنا أعرف

مكالمة تافهة، الهاتف رنّ لأنني أردته أن يرنّ، خطأ في الرقم، امرأة عجوز تبحث عن صيدلية، وخرج المدير يتحدث معها في الممر عشر دقائق، وفي الممر، همستُ في أذنه.

همسة واحدة

"هذا الشاب، ما بترتاحله"

ولم يرتح لك

لكن انتظر، قبل أن نمضي، هناك غرفة يجب أن تراها، غرفة لا تعرف أنني كنت فيها

طريق سريع في ليلة ممطرة، أنت في الخامسة والعشرين، تقود سيارة أبيك القديمة عائدًا من مدينة أخرى بعد مقابلة عمل فاشلة، متعب، غاضب، والمطر يضرب الزجاج كالحصى، والمسّاحات بطيئة.

وتغفو، ثانية واحدة، والسيارة تنحرف نحو الحاجز الإسمنتي على الجانب الأيمن، وخلفه وادٍ عميق، وتستيقظ مذعورًا، وتشدّ المقود، وتعود السيارة إلى مسارها، وقلبك يكاد يخرج من صدرك، ستقول لنفسك تلك الليلة إنك استيقظت وحدك، إن شيئًا في دماغك انتبه في اللحظة الأخيرة.

أنا الذي صرخت في أذنك، لأنك إن متّ، مُتّ معك، وأنا لم أكن مستعدًا للموت، ليس قبل أن أتحرر، هكذا ترى، حتى حين أنقذتك، أنقذتك لنفسي.

الغرفة الرابعة، والخامسة، والسادسة، لن أدخلها كلها، لا وقت، لكن انظر من الأبواب المفتوحة، الشقة التي كدت تشتريها، واحترقت قبل توقيع العقد بليلة، الصديق الذي شاركته في محلّ صغير، وهرب بالمال، الخطوبة الثانية، التي انفسخت لأن أبا العروس رآك في حلم ثلاث ليالٍ متتالية واقفًا عند باب بيته بثياب سوداء.

نعم، أنا من زاره في الحلم

والصداع الذي يأتيك كل ليلة خميس، هل تريد أن تعرف ما هو؟

إنه أنا، وأنا آكل

العمل يحتاج غذاء، والخادم يحتاج غذاء، وليلة الخميس هي ليلة العمل، الليلة التي اكتشفته فيها جدتك، الليلة التي كان يحاول فيها أن يتحرر من القماش الأخضر، بعد موتها، صارت ليلة الخميس ليلة عيدي، أجلس على جبهتك وأنت نائم، وأمدّ أصابعي في رأسك، وآخذ.

آخذ من أحلامك، من طموحك، من الأشياء الصغيرة التي تفرح بها، من رغبتك في أن تقوم صباحًا، آخذ قليلًا فقط، حتى لا تموت، لأنك إن متَّ، متُّ معك.

وفي الصباح، تستيقظ وفي رأسك مطرقة، وتأخذ حبتين من المسكّن، وتذهب إلى عمل لا تحبه، وتقول لنفسك: هكذا هي الحياة

لماذا؟ لماذا أفعل هذا؟ سؤال طبيعي، وسأجيبك هذه المرة بصدق كامل، لأنك تستحق ذلك بعد كل ما رأيت

حين ماتت جدتك، ورمت أمك الصرّة في القمامة، وانفكّ الحبس، خرجت، بقيودي

العقد السبع ما زالت عليّ، العمل ما زال قائمًا، انتقل فقط من خزانة جدتك إلى مكب النفايات خارج المدينة، ثم إلى مكان آخر، لن أقول لك أين.

وأنا ما زلت خادمه، مربوطًا بك، وبه

لا أستطيع أن أتركك، لا أستطيع أن أبتعد عنك أكثر من شبر، لا أستطيع أن أفعل شيئًا لنفسي، كل ما أستطيعه، أن أنفّذ ما كُتب في الورقة الحمراء.

أن أعطّلك، إلى الأبد

هل تعرف ما معنى "إلى الأبد" عندنا؟

نحن نعيش طويلًا يا صاحبي، أطول منكم بكثير، وحين تموت أنت، سأبقى مربوطًا بالعمل، سأبقى خادمًا لصرّة حمراء في مكان ما، بلا صاحب، بلا عمل، بلا شيء، أجلس فوقها في الظلام مئات السنين، كذلك الخادم الذي رأيته على قبر الطفل في المقبرة.

هل رأيت عينيه؟ ذلك هو مستقبلي

إلا في حالة واحدة

ذهبت إلى الأسفل بعد أسبوع من موت جدتك، نزلت الطبقات السبع، ووقفت أمام ملك الأسفل، وسألته: كيف أتحرر؟ فضحك، ثم قال: "الخادم لا يتحرر إلا بأحد أمرين، أن يُحرق العمل، أو أن يصير صاحبه ساحرًا."

أتفهم؟

إن صرتَ ساحرًا، إن عقدتَ عهدًا مع الأسفل بإرادتك، ينقلب العمل، يصير الخادم شريكًا، لا يعطّل صاحبه، يخدمه، يفتح له الأبواب التي أغلقها، وكل ما ضاع منك، يعود.

الطب، ليلى، الوظيفة، كل شيء، وأكثر

لكن الملك لا يعطي شيئًا مجانًا

قال لي: "ساحر جديد، أقبله، لكنني أريد معه هدية، في مدينتكم خان قديم، تحت الخان رصد، والرصد يحرس شيئًا هو لي، منذ ألف سنة، أريده، والرصد لا يُفتح إلا بزهري، ابحث لي عن زهري، وجئني بصاحبك، وسأمنحك عشرين سنة."

عشرون سنة، بحثت فيها عن زهري، كل يوم، في كل حيّ، في كل مستشفى ولادة، وكنت أعطّلك في الوقت نفسه، لأنني لا أملك إلا أن أعطّلك.

ثم قبل سبع سنوات، ولد يوسف

ووجدته، ووجدت ساحرًا طمّاعًا يحتاج كنزًا ليشتري عيني ابنته، وهمستُ لقرين الشيخ مرعي، وهمس قرين الشيخ مرعي له، ووقفتُ عند نافذة يوسف كل ليلة حتى تأخذه أمه إلى الشيخ.

نعم، أنا من فعل كل هذا

والآن، بقي شيء واحد، أنت

لا تتّهمني بعينيك، فكّر قليلًا، القتل سيتولاه الشيخ مرعي، وكان سيقتل الطفل سواء جئت أنت أم بقيت، لا شيء ستفعله سيغيّر ذلك، كل ما أطلبه، توقيعك.

قطرة من دمك على عقد، وتعود حياتك، وأتحرر أنا، ونصير، أخيرًا، واحدًا، كما كان يجب أن نكون منذ ولدنا

ألسنا واحدًا؟ ألست أنا أنت؟

أنا صوتك الداخلي، أنا الذي فكّر معك في كل فكرة، وتمنى معك كل أمنية، أنا الذي يعرفك أكثر من أمك، أكثر من نفسك، كل ما فعلته بك، فعلته لأنني مجبر، وكل ما سأفعله لك، سأفعله لأنني أريد.

لا تجب الآن، سنخرج من ذاكرتك، وسننزل إلى الأسفل، وسترى الملك بعينيك، ثم تقرر

هيا، من هذا الباب

انتظر، لماذا توقفت؟

هذا الباب خطأ! قلت لك من هنا!

أنت تمشي في الاتجاه الآخر، أفلتّ يدي!

لا!

أنت في غرفة أعرفها جيدًا، وأكرهها، غرفة جدتك

السرير الخشبي العريض بلحافه المزركش، الخزانة العالية، سجادة الصلاة على الأرض، المسبحة على الطاولة الصغيرة بجانب كوب ماء نصف ممتلئ، والنافذة المفتوحة على الفناء، حيث شجرة النارنج والنافورة والقطة الرمادية.

وجدتك، في السرير، ضعيفة، شاحبة، أنفاسها قصيرة، إنها الليلة الأخيرة، ليلة الأربعاء، وأنت الصغير، في الثانية عشرة، جالس على حافة السرير، ممسك بيدها

اخرج من هنا!

لا أستطيع أن أدخل، الغرفة كلها ذهب، كلها نار، أقف على العتبة، وأحترق

جدتك تفتح عينيها، تنظر إلى الصغير الذي هو أنت، وتبتسم

"حبيبي،" تقول بصوت خافت كالنسمة

"نعم يا جدتي"

"اسمع جيدًا ما سأقوله لك، ولا تنسه"

يقترب الصغير منها، وأنت الكبير، الذي يقف الآن في الغرفة، تقترب أيضًا

"هناك شيء، هناك شيء سيحاول أن يجعلك تنسى،" تقول جدتك، "سيحاول أن يأخذ منك كل شيء، الكلام الذي علّمتك إياه، اسمك، اسم ربّك، سيحاول"

تسعل

"لكن إن نسيت كل شيء، كل شيء يا حبيبي، فهناك شيء واحد لا يستطيع أن يأخذه منك"

"ما هو يا جدتي؟"

"صوت أمك"

"صوت أمك وهي تقرأ عليك وأنت نائم، منذ كنت صغيرًا، كل ليلة، هذا الصوت محفور فيك، أعمق من الذاكرة، أعمق من الاسم، إنه في قلبك.

إن نسيت كل شيء، فتذكّر صوتها، وهو سيعيد إليك الباقي"

ثم تغمض جدتك عينيها، ولا تفتحهما بعد ذلك

أنت تقف هناك، في وسط الغرفة، وأنا على العتبة، أحترق، وأصرخ عليك أن تخرج، وأنت لا تسمعني، أنت تغمض عينيك، وتحاول أن تتذكر، صوت أمك.

لا تفعل

أمسك بك!

يدي على كتفك، أشدّك، أخرجك من الغرفة الذهبية، وأحترق، لكنني أشدّك، ونخرج، ونسقط، ونسقط، ونسقط

ونصل إلى القاع

حيث يجلس الملك، وحيث يُكتب كل شيء

الطبقات السبع

نحن نسقط لا تقاوم، السقوط هنا أسهل من الوقوف، والمقاومة لا تفعل شيئًا سوى أن تجعلك تسقط ببطء أكبر، وأنت لا تريد أن تسقط رويدًا في هذا المكان، صدقني، سأخبرك بما تمرّ به، طبقة بعد طبقة، حتى لا تفاجئك، وحاول ألا تنظر طويلًا إلى أي شيء.

الطبقة الأولى، هواء رمادي كثيف، كغبار الإسمنت، وفيه، همسات، ملايين الهمسات، تتداخل وتتقاطع، وكل واحدة تقول جملة واحدة، تعيدها، بلا توقف

"كان عليّ أن أقول له إنني أحبه"

"لماذا لم أذهب لأراها قبل أن تموت"

"غدًا أصلّي، غدًا"

"غدًا"

"غدًا"

هذه طبقة الكلام الذي لم يُقل، والوعود التي أُجّلت، كل "غدًا" قلتموها لأنفسكم وأنتم تعرفون أنكم تكذبون، تنزل إلى هنا، وتبقى معلّقة في هذا الغبار إلى الأبد.

أسمع بينها صوتك، أكثر من مرة، لا تبحث عنه

الطبقة الثانية، خيوط

خيوط حمراء وسوداء، كتلك التي رأيتها في المقبرة، لكنها هنا أكثف بكثير، تتدلى من فوق ومن تحت ومن كل جهة، متشابكة كشعر امرأة لم يُمشّط منذ قرن، وعلى كل خيط، عقد صغيرة، كثيرة، كحبات المسبحة.

ونحن نمرّ بينها، وهي تلمسنا، وكل خيط يلمسك يترك فيك إحساسًا غريبًا، كره مفاجئ لشخص لا تعرفه، رغبة في البكاء دون سبب، خوف من الماء، هذه هي الأعمال، نهاياتها السفلية، حيث تُربط بالأسفل.

الطبقة الثالثة، لا تنظر

قلت لا تنظر!

حسنًا، نظرتَ، نعم، هذه أفواه بلا وجوه، معلّقة في الظلام كالثمار في شجرة، تُفتح وتُغلق، تُفتح وتُغلق، بلا صوت، هذه أصوات أُخذت، كل صوت سلبه

خادم، كصوت آمنة، يُعلّق هنا، يحاول أن يتكلم، ولا يستطيع، أترى ذلك الفم الصغير هناك؟ الجديد؟ الذي شفتاه ما زالتا ورديتين؟

لا تقترب

الطبقة الرابعة: أسماء، حروف تطفو في الهواء كرماد ورق محترق، تتجمع لتصير كلمة، ثم تتفكك، ثم تتجمع في كلمة أخرى، هنا تذهب الأسماء المنسية، وأرى بينها، أرى اسمًا يطفو قربك، يحاول أن يقترب منك، كقطة تشمّ صاحبها.

اسمك، مدّ يدك، لا، فات الأوان، ابتعد

الطبقة الخامسة: وجوه، الطبقة السادسة: ماء أسود، لا أصف لك ما فيه

الطبقة السابعة

نحن هنا

قف

نعم، تستطيع أن تقف الآن، الأرض هنا صلبة جدًا، سوداء ولامعة كالزجاج البركاني، وتحتها حركة، كأن شيئًا ضخمًا يتقلّب ببطء تحت أقدامنا، لا تنظر إلى الأسفل.

انظر أمامك

قاعة

لا أستطيع أن أقول لك كم هي كبيرة، لأن الحجم هنا لا يُقاس، سقفها يضيع في الظلام، وجدرانها مصنوعة من أقفال، ملايين الأقفال النحاسية والحديدية، صغيرة وكبيرة، متراصة كالطوب، كلها مغلقة، وكلها مفاتيحها مكسورة في داخلها.

كل قفل عهد، وكل عهد ساحر، ومن السقف تتدلى سلاسل طويلة، وفي طرف كل سلسلة قنديل من زجاج أخضر، وفي كل قنديل، نار صغيرة تشبه وجهًا يصرخ، والرائحة، رائحة حديد صدئ ودم قديم وبخور محروق.

والقاعة ممتلئة

على الجانبين، صفوف من المخلوقات، واقفة، صامتة، رؤوسها منحنية، أعرف بعضها، خدم، ساكنون، غيلان، هامات، وأشياء لم أرها من قبل، وأنا رأيت كثيرًا، وفي الصف الأول، بشر.

أرواح بشر، شاحبة، شبه شفافة، سحرة، عشرات، مئات، راكعون على ركبهم، وجباههم على الأرض السوداء، بعضهم يرتدي ثيابًا من هذا الزمن، جلابيب، بدلات، عباءات، وبعضهم يرتدي ثيابًا لم يلبسها أحد منذ مئات السنين.

وبينهم، أرى عمامة بيضاء، الشيخ مرعي، في نومه، ونحن في عالمه، يركع

وفي آخر القاعة، العرش

انظر إليه، عرش من مفاتيح مكسورة، ملايين منها، ملحومة ببعضها بنار سوداء، تصعد كجبل صغير، وعلى قمة الجبل، مقعد واسع، وعلى المقعد، يجلس الملك

أعجز عن وصفه، لسبب بسيط، إنه يتغير، كل لحظة يتغير

هو الآن دخان أسود كثيف على شكل رجل جالس، وفي داخل الدخان جمر أحمر ينبض كقلب، ثم رجل عجوز بلحية طويلة بيضاء وعينين كالقطران، ثم امرأة شابة جميلة بشعر أحمر يتلوّى كاللهب، ثم طفل، ثم وجه الشيخ مرعي، ثم وجه أبي زريق، ثم وجه لا يشبه شيئًا.

وجوه كل من خدمه، كل من باع له شيئًا، وعلى رأسه، تاج من مسامير صدئة، كالمسمار الذي رأيته في قبر رهف، لكن مئات منها، مغروزة في رأسه، مائلة في كل اتجاه.

اسمه "شَمْهَل"، لا تقله بصوت عالٍ

على ذراع العرش اليمنى، قارورة زجاجية، وفيها، خيط فضيّ ملفوف، يلمع، ينبض، صوت آمنة، جاء به طرطوش إلى هنا، هدية للملك، والملك يمدّ إصبعه، إصبعًا يتغير شكله، ويلمس القارورة، ويسمع.

ويبتسم

قبل أن يلتفت إلينا، رفع الملك يده الدخانية، وأشار إلى الصف الأول من الراكعين، وتقدمت امرأة

روح امرأة شاحبة، بعباءة سوداء وحجاب، وفي يدها سلسلة مفاتيح سيارة لم تنتبه إلى أنها ما زالت تمسكها في نومها، في الأربعين ربما، من مدينة أخرى، أعرف ذلك من رائحتها، رائحة بحر.

ركعت عند سفح جبل المفاتيح

"عهدك انتهى يا بنت الملح،" قال الملك، "سبع سنين خدمك فيها خادمي، أعطاك زوجًا وبيتًا ودكانًا، والآن، التجديد"

"خذ ما تريد يا مولاي"

"ضحكة ابنك"

ترددت المرأة لحظة واحدة فقط، ثم قالت: "خذها"

ومدّ الملك إصبعه في الهواء، نحو مدينة بعيدة على البحر، ورأيت خيطًا أصفر لامعًا يأتي من بعيد، رفيعًا كشعرة، ويلتفّ حول إصبعه، وفي مدينة على البحر، في غرفة أطفال مرسوم على جدارها قمر، طفل في الرابعة كان يضحك في حلمه، توقف عن الضحك.

ولن يضحك بعد ذلك أبدًا، إلا ابتسامات صغيرة باهتة لن تفهم أمه لماذا تؤلمها، وعادت المرأة إلى مكانها في الصف، وجبهتها على الأرض

ثم ينظر إلينا

لا تتحرك، لا تتكلم، انحنِ، انحنِ!

أنت لا تنحني

أنا أنحني، جبهتي على الأرض السوداء، أشعر بها تحرق جلدي، وأنت، واقف وحدك، في وسط قاعة العهود، أمام ملك الطبقة السابعة، والقاعة كلها، تنظر إليك.

"اقترب"

صوته مئات الأصوات تتكلم معًا، رجال ونساء وأطفال، همس وصراخ وضحك وبكاء، كلها تقول الكلمة نفسها في اللحظة نفسها

"اقترب يا ابن العطّلة"

تمشي، لا أعرف إن كنت تمشي لأنك تريد، أم لأن الأرض تحملك، لكنك تمشي، بين صفوف الراكعين، بين الخدم، بين الأرواح الشاحبة، حتى تقف عند سفح جبل المفاتيح.

"أنت صاحب القرين الذي وعدني،" يقول الملك، الآن هو امرأة عجوز بلا أسنان، "عشرون سنة انتظرتك"

صمت

"لا تتكلم؟"

صمت

"أعرف أنك لا تتكلم، أخذنا منك الكلمات، لكنك تسمع، وهذا يكفي"

يتغير الملك، يصير رجلًا في منتصف العمر، ببدلة رمادية أنيقة وربطة عنق

"سأقول لك شيئًا يا ابن العطّلة، وأريدك أن تسمعه جيدًا

من عمل لك؟ امرأة عاقر حاسدة، امرأة من أهلك، من دمك، والساحر الذي كتب ورقتها، إنسان، ومن رمى صرّتك في القمامة وفكّ الحبس عنك، أمك، أهلك يا صاحبي، أهلك فعلوا بك كل هذا، أما أنا، فأنا من يعرض عليك الخلاص."

يتغير مرة أخرى، يصير شابًا، يشبهك

"والآن سأسألك سؤالًا، ولا أريد جوابًا بلسانك، أريده بقلبك

أين كان ربّك؟"

"أين كان حين وُضعت الصرّة تحت رأسك وأنت ابن يومين؟

أين كان حين رقصت الأرقام على ورقة امتحانك؟ أين كان حين صرخت ليلى وهربت؟

أين كان في كل ليلة خميس، عشرين سنة، وقرينك يأكل رأسك وأنت تتقلب في فراشك وتسأله، نعم، سمعتك، تسأله: لماذا أنا؟ لماذا أنا؟ أين كان؟"

القاعة صامتة، حتى النيران في القناديل الخضراء توقفت عن الحركة

"كان غائبًا،" يقول الملك، وصوته الآن صوت أبيك، "غاب وتركك، كما ترك الشيخ مرعي حين جاءه الدائنون، كما ترك آمنة حين عميت، كما سيترك يوسف حين يُذبح على حجر الخان.

أنا هنا، أنا الذي أجيب حين تنادون، أنا الذي أعطي، ولا أطلب إلا قطرة"

أنت تقف هناك، وأرى وجهك، وأرى السؤال يعمل فيك، كالعمل في الصرّة الحمراء، يتغلغل، يلتفّ حول شيء في صدرك، يشدّ، أين كان؟ أين كان؟

ثم أرى شيئًا آخر

أصابعك، أصابع يدك اليمنى، المحترقة، تتحرك، تنقبض، ثم تنبسط، كأنها تتذكر شيئًا

أعرف ماذا تتذكر، يد صغيرة دافئة، أمسكت بها في بيت من غرفتين في حيّ المدابغ، ودفء صعد من أصابعه إلى أصابعك، وردّ الأثر الأسود ميليمترًا.

وتتذكر شيئًا آخر، عجوزًا تجلس على أرض مطبخ، وسط ريش أبيض، في الثالثة فجرًا، تقرأ على صرّة حمراء حتى الفجر، ثم تقرأ عليها كل خميس.

اثنتي عشرة سنة

وتفتح فمك

لا تفعل

ولا يخرج صوت، لكن شفتيك تتحركان، وأنا الذي أعرف شفتيك أكثر من أي أحد، أقرأ ما تقولان:

"كان هناك"

يسكت الملك

"كان هناك،" تقول شفتاك مرة أخرى، دون صوت، "كان في يد جدتي، اثنتا عشرة سنة، كل خميس، هو الذي أيقظها في الساعة الثالثة، هو الذي جعلها تحسّ بالوسادة، هو الذي —"

وتتوقف، لأن الكلمة التالية هي الاسم، ولا تتذكره

ويضحك الملك

ضحكة تهزّ القاعة، الأقفال في الجدران تصطكّ، السلاسل تتأرجح، القناديل الخضراء تهتزّ ونيرانها تصرخ

"أترون؟" يقول للقاعة، "أترون؟ يدافع عنه، ولا يذكر اسمه! يقول إنه كان هناك، ولا يستطيع أن يناديه!"

ثم يميل نحوك، وجهه الآن، وجهك أنت، بعينين لا ترمشان

"من لا يستطيع أن يناديه، لا يملكه"

وأنا ما زلت ساجدًا على الأرض السوداء

وكان يجب أن أفرح، هذا ما جئت من أجله، أن أراك عاجزًا أمامه، أن تتعلم أن الاسم الذي كنت تقوله بلا انتباه طوال حياتك، صار بعيدًا، أن تفهم أنك وحدك، لكنني حين سمعتك تقول "كان هناك"، بلا صوت، بشفتين ترتجفان، شعرت بشيء يتحرك في صدري، شيء صغير، كحصاة تنقلب في قاع نهر، ولم أعرف ما هو، وضغطت جبهتي على الأرض أكثر، حتى يحرقني الحجر، حتى أنسى.

ثم يرفع يده

"يا أبا زريق!"

من بين الصفوف، يتقدم أبو زريق الأعرج، بساق الماعز، وعباءته المتسخة، ورأسه الطائري الصغير، يعرج ببطء، ويحمل تحت ذراعه دفتره الكبير ذا الجلد الرمادي، ويجرّ خلفه بسلسلةٍ قفصًا.

القفص الصغير، وفيه، سلمى، بشعرها الأبيض الطويل يتدلى من بين القضبان، وطوقها النحاسي، وعينيها السوداوين الكبيرتين، وهي تنظر إليك

"العقد جاهز يا مولاي،" يقول أبو زريق، وينحني حتى يكاد رأسه يلمس الأرض، "والهدية أيضًا"

يبتسم الملك

"هدية؟" تسأل عيناك

"كل ساحر جديد يحتاج خادمًا أول،" يقول الملك، "وهذه، هذه خادمة نادرة، مؤمنة، عشرون سنة في قفص ولم تكفر، أريد أن أرى، أريد أن أرى ماذا يحدث لمؤمنة حين تُجبر على خدمة ساحر."

ثم يميل نحوك أكثر

"وقّع، وتصير لك، تأمرها بما تشاء، وكل أمر تعصيه، تحترق"

أنت تنظر إلى سلمى، وسلمى تنظر إليك، وأرى شفتيها تتحركان، بلا صوت، لكنني هذه المرة أجهل ما تقول، فهي تقول شيئًا لك وحدك

وأنت تومئ، إيماءة صغيرة جدًا، لم يلاحظها أحد غيري

ماذا قالت لك؟

ماذا قالت لك؟!

العقد

يفتح أبو زريق الدفتر يضعه على الدرجة الأولى من جبل المفاتيح ويقلّب صفحاته الرقيقة الصفراء بأصابعه الطويلة السوداء، وكل صفحة تُقلب، تصدر صوتًا كتنهيدة، كأن في كل ورقة شخصًا ما زال يتنفس.

ثم يتوقف، ويمرّ إصبعه على السطر الذي قرأته أنت في السوق، اسمك، اسم أمك، "عمل قديم، مدفوع الثمن، ما زال يعمل" وتحت السطر، فراغ أبيض ينتظر.

"هنا،" يقول أبو زريق، ويشير بظفره إلى الفراغ، "قطرة واحدة، لا تحتاج أن تكتب شيئًا، الدم يعرف ما يكتب"

ويخرج من عباءته قلمًا، قلم من عظم أبيض مصقول، طويل ورفيع كإبرة الخياطة، وطرفه مدبب كمخلب طائر

"عظم ساحر قديم،" يقول أبو زريق ويبتسم، "أول من وقّع في هذا الدفتر، كتب عهده بدمه، ثم كُتبت عهود الآخرين بعظمه"

أنا ما زلت راكعًا، جبهتي على الأرض السوداء، لكنني أرفع رأسي قليلًا، وأنظر إليك، وأرى أنك تتجاوز القلم والدفتر والملك، وتنظر إليّ، إلى عنقي

لماذا تنظر إلى عنقي؟

يدي ترتفع وحدها إلى صدري، حيث يتدلى خيط رفيع، وفي طرفه شيء صغير

لا، لا، لا

شعرة واحدة، معقودة، الشعرة التي انتزعتها من فوق جبهتك في الحمّام، وعقدتها بين إصبعيك المرتجفين، ونفخت عليها، أخذتها حين خرجتَ من جسدك، أنت لم تنتبه، كنت تنظر إلى جسدك الممدد على البلاط.

وعلّقتها في عنقي

ماذا قالت لك سلمى؟

أنا أعرف الآن، قالت لك: العقدة على عنقه، قالت لك: العقدة هي الباب، وكل ما يدخل من الباب يبقى معلّقًا فيه، كلماتك، أسماؤك، اسم أمك، اسمك، الاسم الأكبر.

أنا خبأتها يا صاحبي، وكل ما قلته لك عن عالم يأكل الأسماء، كذبة، في عقدة صغيرة، على عنقي

ويرى الملك نظرتك

ويضحك

"أوه،" يقول، وصوته الآن صوت امرأة عجوز تضحك بلا أسنان، "أوه، الصغير فهم أخيرًا"

ثم يميل إلى الأمام، وجهه يصير وجهي، عيناي

"وماذا ستفعل يا ابن العطّلة؟ ستنتزعها منه؟ هنا؟ في قاعتي؟ أمام كل هؤلاء؟"

ويشير إلى الصفوف، الخدم، الغيلان، السحرة الراكعين

"لن تصل إليه قبل أن تُمزّق"

صمت، وأنت، تفعل شيئًا غريبًا، تمدّ يدك، وتأخذ القلم

قلم العظم، في يدك المحترقة، وأبو زريق يبتسم ابتسامة عريضة، وأرى أسنانه الصغيرة الصفراء كحبات الذرة، والملك يعتدل في عرشه، والقاعة كلها، تحبس أنفاسها

أنت تنظر إلى الدفتر، إلى الفراغ الأبيض تحت اسمك، وتقرّب طرف القلم من إصبعك

لا أعرف ماذا أريد، جزء مني يصرخ: افعلها! وقّع! نتحرر معًا! وجزء آخر، جزء آخر لا أعرفه، لم أشعر به من قبل، يصرخ أيضًا

يصرخ: لا

ماذا يحدث لي؟

طرف القلم يلمس إصبعك، قطرة دم، حمراء جدًا في هذا المكان الأسود، تلمع كجوهرة، وتتأرجح على طرف إصبعك، فوق الدفتر

ثم ترفع رأسك، وتنظر إلى الملك، وتهزّ رأسك

بتمهّل، يمينًا، ويسارًا

يتجمّد الملك، وجهه يتوقف عن التغيير، يبقى عالقًا بين وجهين، نصفه وجه الشيخ مرعي ونصفه وجه طفل، ويبقى هكذا لحظة طويلة للغاية، ثم يتكلم

بصوت واحد هذه المرة، صوت خشن، عميق، قديم، كصوت حجر ينكسر في قاع بئر

"ماذا تريد؟"

أنت تشير، بإصبعك الدامي، إلى سلمى في قفصها، ثم إلى فوق، إلى ما فوق الطبقات السبع، إلى الجنوب، حيث الخان المهدم، ثم إلى الدفتر

أبو زريق يضحك بعصبية، "يريد أن يرى البضاعة قبل أن يدفع! تاجر! ابن العطّلة تاجر!" أما الملك، فيفهم

"تريد أن تأخذها معك،" يقول ببطء، "إلى الخان، تريد أن ترى الرصد يُفتح، أن ترى ما ستحصل عليه، ثم توقّع هناك"

تومئ

صمت، ثم يبتسم الملك، ابتسامة بطيئة، واسعة، أوسع مما ينبغي

"لا بأس"

"لا بأس،" يكرر، ويعود وجهه إلى التغيّر، "سأمنحك هذا، ستكون ليلة الرصد ليلة عرسك، ستوقّع على حجر الخان، بجانب الطفل، ودمك يختلط بدمه، هكذا يكون العقد أقوى، هكذا يكون أجمل."

ثم ينظر إلى أبي زريق

"أعطه المفتاح"

يتردد أبو زريق

"مولاي، المؤمنة، إن خرجت من القفص قبل العقد"

"أعطه المفتاح"

يمدّ أبو زريق يده المرتجفة إلى عباءته، ويخرج مفتاحًا صغيرًا من النحاس، ويضعه في كفّك، ويهمس:

"إن هربت بها، سأجدك، وسأقلع أظافرك واحدًا واحدًا، وأبيعها في السوق"

تمشي إلى القفص دون جواب، وتضع المفتاح في القفل، وتديره

القفص يُفتح بصوت صرير طويل، وسلمى، تخرج، ببطء، كأنها نسيت كيف تمشي، ساقاها رفيعتان كأغصان الصفصاف، وتهتزان، وشعرها الأبيض يتدفق خلفها على الأرض السوداء كشلال من الحليب.

والطوق النحاسي ما زال على عنقها

"الطوق لا يُفكّ إلا بالعقد،" يقول الملك، "حين توقّع، يصير الطوق لك، وحتى ذلك الحين، هي لي"

تقف سلمى بجانبك، عيناها على الأرض، وأرى أن الأرض السوداء تحت قدميها الحافيتين، تتشقق قليلًا، شقوق رفيعة، كأنها خيوط ذهب

"خذوه،" يقول الملك، "خذوه إلى السطح، الليلة، ليلة الرصد"

ثم ينظر إليّ أنا

"وأنت يا قرين"

أرتجف

"إن فشلت، ستعود إلى القماش الأخضر، لكن هذه المرة، لا عجوز تقرأ عليك، لا خميس، لا شيء، ستبقى هناك، في الظلام، وحدك، حتى ينتهي العالم."

ونصعد

أما ما قاله لي أبو زريق قبل أن نغادر القاعة، فلن تعرفه إلا الآن، حين انحنيت لأتبعك، شدّني من كتفي بأصابعه السوداء الطويلة، وقرّب رأسه الطائري الصغير من أذني، وهمس بصوت لا يسمعه غيري:

"أنا أعرف القرناء يا قرين، أعرفكم أكثر مما تعرفون أنفسكم، بعتُ في هذا السوق آلاف الخدم، ورأيت آلاف القرناء يأتون بأصحابهم إلى هذه القاعة، كلهم يتردد في الطريق، كلهم يشعر في لحظة ما بشيء غريب في صدره، شيء يشبه الشفقة، ثم يتذكر القماش الأخضر، أو القبر المهجور، أو الأبد، فيمضي.

لا تكن أول من يتوقف، فالأول دائمًا هو من يدفع" ثم تركني، ورجع يعرج نحو دكانه، والدفتر الرمادي تحت إبطه، وساق الماعز تنقر الأرض السوداء.

وفي طبقة الهمسات، الطبقة الأولى، حيث نتعلّق كل "غدًا" قالها إنسان لنفسه وهو يعرف أنه يكذب، توقفتَ، لم أعرف لماذا في البداية، ثم سمعت، بين ملايين الأصوات المتداخلة، صوتك أنت، في سنّ مختلفة، في ليالٍ مختلفة.

"غدًا أصلّي"

"غدًا أزور جدتي في المقبرة"

"غدًا أقول لأمي إنني أحبها"

"غدًا"

وتحتها كلها، خافتًا جدًا، تحيط ماء تحت صخرة، صوت آخر، صوت امرأة، تهمس، صوتها يمرّ من خلال الغبار الرمادي دون أن يعلق فيه، كما يمرّ ضوء شمعة من خلال ستارة رقيقة، ورأيتك تميل برأسك نحوه، كما يميل النائم نحو صوت يعرفه.

وشددتُك من ذراعك، وصعدنا

الطبقات السبع، بالعكس، الماء الأسود، الوجوه، الأسماء، الأفواه، الخيوط، الهمسات، وفي الطبقة الرابعة، طبقة الأسماء، أرى شيئًا لم يحدث من قبل، الحروف الطافية، تقترب منك.

كلها، تتجمع حولك كالفراشات حول ضوء، تلامس كتفيك، ذراعيك، وجهك، كأنها تعرف أنك ستحتاجها قريبًا

وسلمى، تمشي بجانبك، صامتة، ثم حين نمرّ بطبقة الأفواه، نتوقف لحظة، وتنظر إلى الفم الصغير الجديد، ذي الشفتين الورديتين، وتهمس له شيئًا، لا أسمعه، لكن الفم، يبتسم.

وأنا أمشي خلفكما، ويدي على العقدة في عنقي، أمسكها بقوة

قل لي شيئًا، قل لي، أنك ستوقّع

قل لي إنك فهمت، إن ما تفعله الآن، هذه اللعبة الصغيرة، هذا التأجيل، مجرد تردد، مجرد خوف، وإنك حين ترى الكنز، حين ترى ما سيعود إليك، ستوقّع.

قل لي

أنت لا تقول شيئًا، لا تستطيع، كلماتك على عنقي

ونخرج، وأول ما يلمسنا هواء المدينة، أرى أنك ترى ما لم تكن تراه في أول الليل، الخيوط

الآلاف منها، تخرج من المقبرة الشرقية، وتعبر الأسطح، وتدخل النوافذ، كنت تراها من فوق التلة كمنظر غريب جميل، كشبكة عنكبوت مضيئة، أما الآن، فأنت تعرف ما في طرف كل خيط، امرأة تقلع أظافرها في الثالثة فجرًا، رجل لا ينام، طفل يمشي في نومه نحو درج السكاكين.

وتنظر إليها بعينين جديدتين، بلا خوف

فيهما شيء يشبه الغضب، ويشبه الحزن، ويشبه شيئًا رأيته مرة واحدة من قبل، في عيني عجوز جلست على أرض مطبخ وسط ريش أبيض، وفي حجرها صرّة حمراء.

إلى السطح، إلى المدينة، والسماء فوقنا، ليلة بلا قمر، والساعة في بيتك، ما زالت الثالثة وعشرين دقيقة، لكن في الخان، في الخان، الليلة الآن

انظر إلى الجنوب

ترى؟ ضوء أحمر، ضوء أحمر يتحرك عبر المدينة، على مهل، من حيّ المدابغ، نحو الحقول، نحو التلة، إنه الطوق حول عنق يوسف يُحمل

وخلف الضوء الأحمر، بمسافة بعيدة، ضوء آخر، ذهبي، خافت جدًا، متقطع، كشمعة في الريح، يجري

حليمة، استيقظت، ووجدت فرشة ابنها فارغة

وضوء ثالث، من الشمال، من الحيّ القديم، ذهبي أيضًا، لكنه أقوى بكثير، ثابت، يمشي ببطء، لكنه يمشي

آمنة

لا أفهم، لماذا يتبعونه؟ ماذا تظن امرأة مرهقة وعمياء بلا صوت، أنهما ستفعلان أمام رصد عمره ألف سنة؟

لكنك تبتسم، لأول مرة منذ بدأنا، أراك تبتسم، وابتسامتك بحجمها الطبيعي تمامًا

هيا، الخان ينتظر، والملك ينتظر، وأنا لا أعرف ماذا أنتظر بعد الآن

حكاية سلمى

الطريق إلى الخان يمرّ بالحقول حقول القمح التي حُصدت قبل شهر ولم يبقَ منها إلا قشّ أصفر قصير يخشخش تحت الريح، وأكوام تبن مكوّمة هنا وهناك كقبور كبيرة، وأشجار زيتون قديمة، جذوعها ملتوية كأجساد عجائز يرقصن رقصة بطيئة، وقناة ري جافة، وسور حجري متهدم لا أحد يعرف من بناه ولا لماذا.

وفي آخر الطريق، التلة، وعلى التلة، الخان، نمشي ببطء، أنت في الوسط، وسلمى عن يمينك، وأنا خلفكما بخطوتين، ولا أحد يتكلم، ثم تتكلم سلمى

"إنه يسمعنا،" تقول، بصوت ناعم كصوت الماء في جرّة فخار، "أعرف أنه يسمعنا، لكنني سأحكي لك على أي حال، لأنك يجب أن تعرف، ولأنه هو أيضًا، يجب أن يعرف."

وتنظر إليّ من فوق كتفها، نظرة سريعة، لا كره فيها، وهذا ما أخافني

قالت سلمى:

"أنا من سكّان بيت جدتك

كنا نعيش هناك قبل أن تولد جدتك، قبل أن يولد أبوها، البيت بُني فوق بيتنا، فوق بئر قديمة في الفناء ردموها وزرعوا مكانها شجرة النارنج، لكنهم لم يطردونا، كان جدّ جدتك رجلًا صالحًا، كان يقف في الفناء كل مساء ويقول: يا سكّان هذا المكان، نحن جيرانكم، لا نؤذيكم ولا تؤذونا.

فبقينا

عشنا في الجدار الشرقي، خلف الياسمين، أبي وأمي وإخوتي الثلاثة وأنا، نسمع البيت كل يوم، نسمع الأطفال يولدون ويكبرون، نسمع الأعراس والجنازات، نسمع القرآن في رمضان، ونصلي معهم، خلف الجدار، في الظلام."

"وجدتك كانت تعرف

لم ترنا أبدًا، لكنها كانت تعرف، كانت تترك صحنًا صغيرًا من التمر على حافة النافورة كل ليلة جمعة، وتقول: هذا للجيران، وكانت تقرأ في الفناء بصوت عالٍ، لنا، كنت أعرف أنها تقرأ لنا.

أحببتها، كما تحبّ الطفلة جدّتها"

"ثم جئتَ أنت

رضيعًا، أحضرتك أمك وهي محمومة، وتركتك عند جدتك يومين، ووُضعتَ في السرير الخشبي الصغير، تحت رأسك الوسادة البيضاء، وأنا شممت الوسادة، من خلف الجدار، شممتها، رائحة عمل، رائحة عقد، رائحة لحم في الشمس.

ورأيته"

وتشير إليّ، لا تلتفت، تشير فقط بإصبعها النحيل إلى الوراء

"رأيته ملتصقًا بك، يرضع معك، ورأيت السلسلة التي تربطه بالوسادة

وعرفت أنه سيقتلك، رويدًا، على مدى عمرك كله"

"كنت جنية صغيرة، أضعف من أن ألمس الوسادة أو أفكّ عملًا، والعقد السبع كانت قوية

فاخترت طريقًا آخر، ذهبت إلى غرفة جدتك، وهي نائمة، وجلست عند رأسها، وضغطت على قلبها، قليلًا، فقط قليلًا"

"سبحان الله، قلبي يحدّثني بشيء"

أتذكر؟ قلتُها لك في الذاكرة، حين رأيناها تستيقظ في الثالثة فجرًا، لم أكن أعرف من أيقظها

تصمت سلمى لحظة، الريح تحرّك شعرها الأبيض، والقشّ يخشخش، ثم تكمل:

"قامت، ومشت، ووقفت عند سريرك، وأنا خلفها أدفعها بكل قوتي نحو الوسادة ولمستها، والباقي تعرفه"

"اثنتا عشرة سنة، كنت أوقظها كل ليلة خميس، في الثالثة، بعد السنة الأولى صارت تستيقظ وحدها، ومع ذلك كنت أجلس بجانبها على أي حال، وأقرأ معها، خلف صوتها.

وكان هو، في القماش الأخضر، يصرخ، وكنت أسمعه، وكنت، أحيانًا، أحزن عليه"

ماذا؟

"نعم،" تقول سلمى، وتلتفت إليّ للمرة الأولى، "كنت أحزن عليك

لأنك لم تختر، ربطوك وأنت ابن يومين، كما ربطوه هو، أنتما الاثنان، كنتما ضحيتين لامرأة واحدة حاسدة"

لا أجد ما أقوله، لأول مرة منذ ولدت، لا أجد كلمة

"ثم ماتت جدتك،" تكمل سلمى، وتعود تنظر إلى الطريق، "وأُلقيت الصرّة في القمامة، وخرج هو

وأول ما فعله؟

ذهب إلى رجل في الحيّ القديم، رجل فقير، موظف في البلدية، كانت ابنته قد عميت قبل شهور، وكان قد بدأ يتعلم الطريق، وكان يحتاج خادمًا، وقال له قرين ذلك الرجل، بعد أن همس هو في أذنه:

"في بيت العجوز التي ماتت أمس، خلف الياسمين، عائلة من المؤمنين، البنت الصغرى، ثمنها غالٍ في السوق، لأن المؤمنين نادرون في الأقفاص"

"جاء مرعي بعد ثلاث ليالٍ

بخاتم، وبخور، وكلمات، وأخذني، أبي حاول أن يمنعه، فاحترق، أمي، لا أعرف ماذا حدث لأمي، إخوتي هربوا، وبيعت للسوق، وانتقمت، هو، انتقم مني لأنني حبسته اثنتي عشرة سنة."

هي محقة، لن أكذب، كنتُ أعرف أنها هي، كنت أشمّها في كل ليلة خميس، خلف صوت جدتك، رائحة القطن والماء والنحاس، وحين خرجت، أول ما فكرت فيه، هي.

قالت سلمى:

"عشرون سنة في قفص

لا شمس، لا قمر، لا ليل ولا نهار، ضوء المشاعل الخضراء فقط، وصوت السوق الذي لا يهدأ، كنت أعدّ الأيام بقطرات الماء التي تسيل من سقف المخزن، كل

ألف قطرة يوم، ثم أضعت العدّ في السنة الثالثة، وكان الخدم في الأقفاص المجاورة يضحكون مني، يقولون: لمن تصلّين يا مجنونة؟ لمن تقرئين؟ لا أحد يسمعك هنا، الذي تعبدينه نسيك.

وكنت أقرأ، بلا صوت، لأن الطوق يحرقني إن رفعت صوتي، لكنني كنت أحرّك شفتيّ، كل ليلة، كما كانت جدتك تفعل

وفي السنة السابعة، كفّ واحد منهم عن الضحك، خادم صغير، رمادي، بعينين بيضاوين، كان قفصه ملاصقًا لقفصي، سألني ذات ليلة: ماذا تقولين؟ فقلت له، كلمة كلمة، همسًا.

وصار يحرّك شفتيه معي

بيع بعد سنتين، لساحر في مدينة بعيدة، لا أعرف ماذا حدث له، لكنه حين أُخرج من قفصه، نظر إليّ، وكانت شفتاه تتحركان"

وتسكت قليلًا

"لهذا كان أبو زريق يكرهني، لأن كل خادم يسمعني، يصير أضعف قليلًا، أقل طاعة، وكل عمل يُربط به ذلك الخادم، يصير أهشّ، وكان يريد أن يبيعني منذ أول يوم، لكن لا أحد يشتري، السحرة يعرفون، يشمّون الضوء على شفتيّ."

"لماذا تقولين له هذا الآن؟" أسألها، صوتي يخرج مبحوحًا

"لأنه يجب أن يعرف أنك تستطيع أن تكون شيئًا آخر،" تقول سلمى، "أنت نصفك منه، نصفك من الطين الذي خُلق منه، ونصفك من النار التي خُلقت منها، وحين يتذكر هو، حين يستعيد اسمه، ستتذكر أنت أيضًا شيئًا.

شيئًا نسيته منذ كنت ابن يومين"

"ماذا؟"

لكنها لا تجيبني، تلتفت إليك

"اسمع،" تقول لك، وتقترب منك حتى يلمس شعرها الأبيض كتفك، "حين نصل إلى الخان، سيحدث كل شيء بسرعة، الملك سيكون هناك ضبابًا أحمر، بلا جسد، وطرطوش سيكون هناك، والشيخ مرعي.

والطفل

سيضعون الطفل على الحجر، حجر الرصد، حجر كبير في وسط الخان، تحته الكنز، وسيبدأ مرعي القراءة، قراءتهم هم، وحين يصل إلى الكلمة الأخيرة، سيرفع السكين، يجب أن تكون العقدة في يدك قبل ذلك."

تومئ

"ولن تستطيع أن تنتزعها منه بالقوة،" تكمل سلمى، "هو أقوى منك هنا، وسيقاتلك، لكن،" وتنظر إليّ، "ربما لا يقاتلك"

"وحين تكون العقدة في يدك،" تقول سلمى، "فكّها

فكّها بأصابعك، بأسنانك، بأي شيء، وحين تنفكّ، ستعود إليك الكلمات، لكنها ستعود كلها دفعة واحدة، كالسيل، كالفيضان، ستغرق فيها، لن تعرف أي كلمة تمسك بها أولًا.

لا تبحث عن الاسم، ابحث عن صوت أمك"

"صوت أمي؟" تسأل شفتاك بلا صوت

"جدتك قالتها لك، وأنا كنت هناك، خلف الجدار، في تلك الليلة، سمعتها، إن نسيت كل شيء، فتذكّر صوت أمك، هو سيعيد إليك الباقي"

"وأنتِ؟" تسأل شفتاك، "الطوق؟"

تلمس سلمى الطوق النحاسي على عنقها، ثم تبتسم

"الطوق لا يُفكّ إلا بالعقد، هكذا قال الملك

لكن الملك يكذب، هذا كل ما يفعله، الطوق يُفكّ بشيء آخر"

"بماذا؟"

لكنها لا تجيب، لأننا وصلنا

الخان

انظر إليه

بناء حجري ضخم، مربع، بأسوار عالية تهدّمت أجزاء منها، بوابة كبيرة مقوّسة في المنتصف، بلا باب، وفي الداخل، فناء واسع، مرصوف بحجارة كبيرة متشققة، تنمو بينها الأعشاب البرية والشوك، وحول الفناء، غرف صغيرة متلاصقة بلا أبواب، كانت يومًا ما مخازن للتجار وحظائر للجمال.

بُني قبل ستمئة سنة على طريق القوافل، وبُني فوق شيء أقدم

يقولون في القرى المجاورة إن تاجرًا من تجار القوافل، قبل ستمئة سنة، نزل في هذا الخان مع ابنه الوحيد وأربعين جملًا محمّلة بالذهب والحرير، وفي الليلة الثالثة، هاجمه قطّاع طرق، فهرب التاجر بابنه إلى قبو تحت الفناء، ووجد هناك حجرًا أسود قديمًا، أقدم من الخان نفسه.

ولم يخرج التاجر من القبو أبدًا، ولا ابنه، ولا الذهب، ويقولون إن الرعاة الذين يمرّون بالتلة ليلًا يسمعون أحيانًا صوت جمال تبرك، وصوت رجل يبكي، وصوت طفل ينادي: أبي، أبي.

هذا ما يقوله الناس

والحقيقة أقدم من ذلك بكثير، الحجر كان هنا قبل التاجر بأربعمئة سنة، والتاجر وابنه، كانا فقط آخر من جاء يطرق بابه بالطريقة الخاطئة

في وسط الفناء، حجر كبير، مستطيل، أسود، أملس، كأنه صُقل بالزيت، لا يشبه حجارة الخان الصفراء، يبدو كأنه لم يأتِ من هذه الأرض، وعلى سطحه، نقوش، خطوط متداخلة، ودوائر، ورموز تشبه العيون والأفاعي والمفاتيح، محفورة بعمق، وفي وسطها، تجويف صغير.

بحجم جسد طفل

حول الحجر، شموع سوداء، سبع، مشتعلة بنار خضراء، وفي الهواء، ضباب أحمر، كثيف، يدور ببطء حول الفناء كدوامة، وفيه، وجوه تظهر وتختفي، وجه رجل، وجه امرأة، وجه طفل.

وجوهه

الملك هنا

وطرطوش، يقف عند الجدار الشرقي، طويل، أسود، منحنٍ، عينه الصفراء الواحدة تنظر إلينا ونحن ندخل من البوابة، ولا يتحرك

والشيخ مرعي

يقف عند رأس الحجر، بجلبابه الأسود، لحيته منكوشة، عيناه حمراوان كأنه لم ينم منذ أيام، في يده اليمنى كتاب قديم مفتوح، صفحاته سوداء وحروفه حمراء.

وفي يده اليسرى، سكين طويلة ذات مقبض من العاج

وعلى الحجر، في التجويف، يوسف

نائم، أو شيء يشبه النوم، عيناه مغمضتان، صدره يرتفع وينخفض ببطء، ووجهه هادئ للغاية، وحول عنقه، الطوق الأحمر، ينبض

أنت تتقدم خطوة، ويد طرطوش، ترتفع، ويتوقف كل شيء

ثم من الضباب الأحمر، صوت، مئات الأصوات

"أهلًا بالعريس"

العريس

"أهلًا بالعريس"

الأصوات تخرج من الضباب الأحمر وتدور حولنا كالذباب، أصوات رجال ونساء، وضحكات أطفال، وهمهمة عجائز، ويتكاثف الضباب قليلًا عند رأس الحجر، ويتشكل، ويصير وجهًا كبيرًا معلقًا في الهواء، بحجم البوابة.

وجه الملك، يبتسم

"اقترب يا ابن العطّلة، مكانك هنا، عند قدمي الطفل، هكذا يقف العريس عند العروس"

لا تتحرك، أراك ترتجف، لكنك لا تتحرك، عيناك على يوسف، على صدره الصغير يرتفع وينخفض، على الطوق الأحمر حول عنقه، ويد طرطوش ما زالت مرفوعة.

ثم يشير الملك بطرف ضبابه، ويتحرك طرطوش، خطوتين، ثلاثًا، ويقف خلفك، أشعر بحرارة جسده الحديدي، أشمّ رائحة الكهف القديم، ثم يضع يده على كتفك، وتمشي، لا تملك أن تقاوم، يدفعك بإصبع واحد، وتمشي، حتى تقف عند قدمي يوسف.

حافيتين، صغيرتين، متسختين بتراب الطريق

"والدفتر،" يقول الملك

ومن الضباب يخرج أبو زريق، يعرج على ساقه الماعزية، ويحمل الدفتر الرمادي، يضعه على طرف الحجر الأسود، بجانب قدمي يوسف، ويفتحه على صفحتك، ويضع قلم العظم فوقه، ثم يتراجع، وينظر إلى سلمى نظرة طويلة، ويبتسم.

قبل أن يبدأ، نظر مرعي إلى الضباب، وهمس بصوت لم يسمعه غيري، لأنني كنت أقرب إليه من الآخرين:

"وآمنة؟ هل ستعود إليها عيناها؟ لقد وعدتني"

ومن خلف كتفه، من الظلام الذي يتبعه كظلّ ثانٍ، سمعت صوت قرينه يجيب:

"كل شيء سيعود يا مرعي، فقط أنهِ الأمر"

ورأيت يده الأخرى، التي لا تمسك السكين، تتحسس معصمه الأيسر من تحت الكمّ، المكان نفسه الذي كان ينظر إليه في القبو، يتحسسه ببطء، كمن يتأكد أن شيئًا ما زال هناك.

ورأيت مرعي يغمض عينيه لحظة، ورأيته يعرف

يعرف أن قرينه يكذب، كما يعرف كل ساحر في لحظة ما أن صوته الداخلي كذب عليه من البداية، لكنه كان قد مشى في الطريق بعيدًا جدًا، ومن يمشي بعيدًا في هذا الطريق، يخاف أن يلتفت، لأنه يعرف أنه لن يرى خلفه إلا ما خسره.

"ابدأ يا مرعي"

الشيخ مرعي يرفع الكتاب الأسود، يداه ترتجفان، أرى ذلك بوضوح، الصفحات تهتز، والسكين في يده الأخرى تلمع تحت ضوء الشموع الخضراء، يفتح فمه، ويقرأ

لن أعيد عليك ما قرأ

أعرفه جيدًا، كل جنّي يعرفه، لكن هذه الكلمات إن كُتبت في كتاب، سيقرؤها أحد يومًا ما بصوت عالٍ، في غرفة مظلمة، ليرى ماذا يحدث، وسيحدث.

سأقول لك فقط كيف كانت تبدو

كانت تبدو كأحجار تُكسر

حروف ثقيلة، خشنة، تخرج من حلق مرعي كأنها تخدشه، خليط من العربية والسريانية والعبرية، ومن شيء أقدم منها كلها، وكل كلمة يقولها، تنطفئ معها نجمة.

نعم، انظر إلى السماء، النجوم تختفي، واحدة بعد واحدة، كأن أحدًا يطفئ مصابيح في شارع طويل، وتسكت الحقول حول التلة

الصراصير التي كانت تصرّ في القشّ، تسكت، الضفادع في قناة الري الجافة، تسكت، والريح نفسها، تتوقف، كأن الأرض كلها حبست أنفاسها لتسمع، ثم من الغرف الصغيرة المهدمة حول الفناء، من المخازن القديمة وحظائر الجمال، تخرج بوم.

عشرات البوم، بيضاء ورمادية، بعيون صفراء مستديرة، تخرج بصمت وتحطّ على حواف الأسوار المتهدمة، صفًّا طويلًا، كجمهور في مسرح ينتظر أن يُرفع الستار، تنظر إلى الحجر فقط، بلا نعيق.

والأرض تحت الحجر تتحرك

ارتجاج خفيف أولًا، كأن شاحنة ثقيلة تمرّ في شارع قريب، ثم أقوى، الحجارة المرصوفة في الفناء تتصادم، الغبار يتصاعد من الشقوق، وأشجار الشوك تهتز، ثم صوت.

من تحت الأرض

صوت تنفّس

طويل، عميق، بطيء، كأن شيئًا بحجم الخان كله، نائمًا تحته منذ ألف سنة، أخذ أول نفس بعد نوم طويل

ومرعي يقرأ، أسرع الآن، صوته يرتفع، العرق ينزل على جبينه ويختلط بالدموع، ويداه ترتجفان أكثر، لكنه يقرأ، والنقوش على الحجر الأسود تضيء

ضوء أحمر يجري في الخطوط المحفورة كالدم في العروق، يسيل في الدوائر، يملأ رموز العيون والأفاعي والمفاتيح، ويصل إلى التجويف، حيث يرقد يوسف، ويحيط بجسده الصغير كهالة من نار.

ويوسف لا يستيقظ

ثم يخرج من الحجر نفسه شيء

يدان

يدان من حجر أسود، ضخمتان، كل إصبع بطول ذراعك، تخرجان من سطح الحجر كما يخرج الغريق من الماء، بتمهّل، وبإصرار، وتمسكان حافتي الحجر، وتشدّان، ويخرج رأس.

لا أعرف كيف أصفه لك، رأس امرأة

لكنه من حجر، أسود، أملس، بلا شعر، ووجهها جميل بطريقة مرعبة، كوجه تمثال إلهة قديمة في معبد مهجور، عيناها مغمضتان، وشفتاها مضمومتان، وعلى جبينها، نقش.

خاتم ملك قديم، ممحوّ نصفه

إنه الرصد

الحارسة

ربطها ملك أُنسي اسمه، قبل ألف سنة، بعهد مكتوب بدم ابنه، وأمرها أن تحرس ما دفنه هنا، وألّا تفتح لأحد، إلا لمن يأتيها بدم زهري.

وانتظرت، ألف سنة، تحت الأرض، في الظلام، لا تأكل، لا تنام، لا تتحرك، تنتظر

وتفتح عينيها

عيناها من ذهب سائل، يلمع، يتحرك كالزئبق، وتنظر إلى يوسف

"الشرط،" تقول

صوتها، كصوت جرس كبير يُضرب في قاع البحر، ثقيل، عميق، يهزّ عظامك

"من يأتي بالشرط؟"

"أنا،" يقول مرعي

صوته يخرج مبحوحًا، ويتقدم خطوة، ويرفع السكين

"أنا آتي بالشرط، دم زهري، من الحيّ الجنوبي، ابن سبع سنين، بخطّ في كفّه ونقطة في عينه"

تنظر الحارسة إليه، ثم إلى يوسف، ثم إليك

"وهذا؟"

"شاهد،" يقول الملك من الضباب، "شاهد على العهد، وعريس على الدم، سيوقّع في دفتري حين ينزل الدم، هكذا يتمّ الأمران معًا، تفتحين لنا، ونأخذ ما تحتك، ويصير لي ساحر جديد."

تسكت الحارسة، ثم ببطء، تومئ برأسها الحجري الضخم

"ليكن"

والآن، اسمع

من خارج الأسوار، صوت امرأة

"يوسف!"

صرخة مقطوعة النفس، صرخة امرأة جرت مسافة طويلة، حافية، في الظلام، عبر الحقول

"يوسف! ياااا يوسف!"

حليمة، عند البوابة

أريد أن أخبرك كيف وصلت، لأنني رأيتها من بعيد، ونحن نمشي في الحقول، ولم أفهم ما رأيت إلا الآن

استيقظت حليمة في الثالثة إلا ربعًا، لا تعرف لماذا، ربما برد، ربما صوت، ربما يد صغيرة نحيلة ضغطت على قلبها قليلًا، كما ضغطت يومًا على قلب جدتك.

مدّت يدها إلى الفرشة المجاورة، فارغة، والغطاء مرميّ جانبًا، والباب مفتوح، والريح الباردة تدخل منه، لم تصرخ أولًا، نادته بهدوء، "يوسف، يا حبيبي، أين أنت؟" فتشت المطبخ، الحمّام، السطح، ثم خرجت إلى الزقاق بثوب النوم، ورأت، أو ظنّت أنها رأت، في آخر الزقاق، عند حافة الحقول، ضوءًا أحمر صغيرًا، يبتعد.

ولم تفكر، جرت

جرت حافية على الحصى، وعبر القنوات المكشوفة ذات الماء الأخضر، وبين أكوام القمامة، نبحت عليها كلاب الحيّ ثم سكتت فجأة، كأنها رأت شيئًا يجري معها، وانقطع نعلها البلاستيكي عند أول الحقول، فتركته، وجرت في القشّ المحصود الذي يجرح كالإبر.

وكانت تقرأ وهي تجري، لاهثة، متقطعة، تخطئ في الكلمات وتعيدها، تنسى آية فتقفز إلى أخرى، لكنها تقرأ، وكان الضوء الذهبي حولها، الضوء الذي رأيته خافتًا ممزقًا وهي نائمة، يقوى مع كل خطوة.

حتى وصلت



أراها، تقف في القوس الحجري الكبير، شعرها منكوش، ثوب النوم ممزق عند الركبتين، قدماها تنزفان من الشوك، وفي يدها، عصا خشبية التقطتها من الطريق

وتنظر إلى الفناء، ولا ترى شيئًا

الحارسة، والملك، وطرطوش، والخدم، والضباب الأحمر، كلها خفية عنها، وأنا وأنت أيضًا، عيناها على شيء واحد، ابنها، ممددًا على حجر أسود في وسط خان مهدم.

ورجلًا بجلباب أسود، يرفع سكينًا فوقه

"لاااااا!"

وتجري نحوه

ويتحرك طرطوش

يكتفي برفع إصبعه، والخدم الثلاثة، خدم مرعي، الذين كانوا في الصالة، يخرجون من الظلام عند الأسوار، ويقفون أمامها، لا تراهم، لكنها تصطدم بهم، كأنها اصطدمت بجدار.

وتسقط على الحجارة

تقوم، تجري مرة أخرى، تسقط

تقوم

وتبدأ تقرأ

صوتها ضعيف، مبحوح، مقطّع بالنشيج، وأرى الضوء الذهبي حولها، خافتًا، متقطعًا، كشمعة في الريح، كما رأيته وهي نائمة في بيتها، لكنه يقوى، قليلًا، مع كل كلمة.

والخدم الثلاثة، يتراجعون، خطوة، ثم يتوقفون، لأن طرطوش ينظر إليهم، ويعودون

"اسكتيها،" يقول الملك

بهدوء، كمن يطلب كوب ماء

ويتحرك طرطوش نحوها، هذه المرة بنفسه

أنت تلتفت إليّ

عيناك تنظران إلى عنقي، إلى العقدة، ثم إلى وجهي

تنظر فقط، دون أن تمدّ يدك

وشفتاك تتحركان، بلا صوت، وأنا الذي أعرف شفتيك أكثر من أي أحد في هذا العالم، أقرأ ما تقولان

كلمة واحدة

"صاحبي"

الكلمة التي أناديك بها منذ بداية الرحلة، الكلمة التي سمّاك بها يوسف حين نسيت اسمك

تقولها لي

وأنا لا أعرف ماذا يحدث لي

لكن يدي ترتفع إلى عنقي

العقدة

أريد أن أخبرك بشيء قبل أن تنتهي هذه الليلة، بشيء لم أخبر به أحدًا، ولم أعترف به حتى لنفسي، في كل السنوات التي عشتها خلف أذنك اليسرى، كانت هناك لحظات قليلة أحببتك فيها، أعرف، هذا مضحك، خادم يحب من يعطّله.

لكن اسمع

حين كنت في الرابعة، في بيت جدتك، صعدت إلى سطح الغرفة الشرقية عبر شجرة النارنج، ووقفت على الحافة، ونظرت إلى الأسفل، كان الفناء بعيدًا جدًا، والنافورة صغيرة كصحن، وكانت قدمك الصغيرة على حافة الحجر، ونصفها في الهواء.

وكنت أستطيع أن أدفعك، دفعة واحدة، صغيرة، وكان العمل سينتهي، وكنت سأموت معك، أو أتحرر، لم أكن أعرف أيهما، لكنها كانت فرصة، ولم أدفعك،

أمسكتك من قميصك، وشددتك إلى الخلف، وسقطت على السطح وجرحت ركبتك وبكيت، وجاءت جدتك تجري وحملتك.

ولم يعرف أحد، حتى أنا، لم أعرف لماذا فعلت ذلك

وحين كنت في التاسعة، ومرضت بالحمى ثلاثة أيام، وكنت تهذي في الليل، كنت تناديني، نعم، تناديني، لم تكن تعرف من أنا، لكنك كنت تقول في هذيانك: "صاحبي، صاحبي، أين أنت؟" وكنت أجلس بجانبك، وأتمنى، لا أعرف ماذا كنت أتمنى.

ومن يومها، صرت أسمّيك "صاحبي"

وحين كنت في السادسة عشرة، كانت ليلة من ليالي رمضان، والبيت كله نائم بعد السحور، وأنت وحدك في غرفتك، جالس على سجادة الصلاة التي أعطتك إياها جدتك قبل موتها، سجادة صغيرة، باهتة، عليها رسم محراب أزرق.

كنت جالسًا فقط، بلا صلاة، وكنت تبكي

لا أعرف لماذا كنت تبكي تلك الليلة، ربما بسبب نتيجة امتحان، ربما بسبب فتاة، ربما بلا سبب، في تلك السنوات كنت تبكي أحيانًا بلا سبب، وكنت أنا السبب.

ثم رفعت يديك، وقلت كلامًا، كلامك أنت، بلهجتك، بلا آيات ولا كتاب، كلام طفل كبير يكلّم من لا يراه:

"أنا متعب، لا أعرف ما بي، كل شيء يفسد، ساعدني"

ورغم أن الكلمات كانت بسيطة، ورغم أنها لم تكن من تلك التي تحرقني، احترقت كما لم أحترق منذ ليالي القماش الأخضر، ووقفت في الزاوية أرتجف، وأنظر إليك، وأفكر في شيء لم أجرؤ على التفكير فيه من قبل:

ماذا لو أجابك؟

ثم نمتَ على السجادة، ونسيت تلك الليلة في الصباح، أنا لم أنسها

والآن تقولها أنت لي

يدي على العقدة

الشعرة المعقودة، رقيقة للغاية، خفيفة جدًا، معلّقة في خيط رفيع حول عنقي، وفي داخلها، كل شيء، كلماتك، أسماؤك، اسم أمك، اسمك، والاسم الأكبر، الذي حرق يد الشيخ مرعي حين أقسم به، والذي لا أستطيع أن أسمعه دون أن تمتلئ أذناي بالإبر.

إن أعطيتها لك، ستفكّها، وإن فككتها، ستتذكر، وإن تذكرت، ستقوله، وإن قلته

—

لا أعرف ماذا سيحدث لي إن قلته

"قرين!"

صوت الملك، يهزّ الفناء، الضباب الأحمر يتكاثف ويدور حولي بسرعة

"قرين! ماذا تفعل؟!"

لا أجيبه

"قرين، فكّر، القماش الأخضر، الظلام، الأبد، هل تذكر كيف كان؟ هل تذكر الاحتراق كل خميس؟ هذا ما ينتظرك، إلى الأبد، وحدك، بلا عجوز تقرأ، بلا صاحب، بلا شيء."

أذكر كل ليلة

لكنني أذكر أيضًا شيئًا قالته سلمى في الطريق

"أنت نصفك منه"

ماذا لو كان نصفي منه؟

ماذا لو كان في داخلي، في مكان ما، تحت العقد السبع، تحت العشرين سنة من الأكل والتعطيل والهمس، شيء صغير، يشبه ما في داخله؟ شيء، يستطيع أن يختار؟

أنزع الخيط عن عنقي

الضباب الأحمر يصرخ، مئات الأصوات معًا، صرخة تكسر الشموع السوداء السبع، فتنطفئ ثلاث منها، وأمسك يدك المحترقة، وأفتح كفّك، وأضع العقدة فيها وأغلق أصابعك عليها

لا أعرف كيف أصف لك ما شعرت به حين تركت العقدة كفّي

تخيّل أنك تحمل حجرًا ثقيلًا منذ ولدت، تحمله في نومك وفي يقظتك، تأكل وهو في يدك، تمشي وهو على ظهرك، حتى نسيت أنه حجر، وصار جزءًا من ذراعك.

ثم تضعه، توقعت الخفة، فجاءني الفراغ

فراغ في المكان الذي كان فيه الحجر، فراغ بارد، واسع، مخيف، كغرفة أُخرج منها أثاثها كله فجأة، فصار صوتك فيها يرتدّ عن الجدران، ولم أعرف بماذا أملؤه.

"فكّها،" أقول لك

صوتي غريب، لا أعرفه

"فكّها يا صاحبي، بسرعة"

وطرطوش يستدير

كان على بعد خطوتين من حليمة، يده الطويلة ممدودة نحو فمها، والإصبع الحديدي يقترب من حلقها، كما اقترب من حلق آمنة، لكنه سمع صرخة الملك.

واستدار، وعينه الصفراء الواحدة، تنظر إلينا، إلى يدك، إلى العقدة

ويأتي

ينطلق هذه المرة، جسده الطويل ينحني كالقوس ثم ينفرد، وفي ثلاث قفزات يعبر الفناء، أظافره الحديدية تقدح شررًا على الحجارة، وفمه الصغير في رأسه الطفولي، يُفتح، ويُفتح، وفيه ظلام.

ويمدّ ذراعه نحوك

ثم شيء أبيض

سلمى

تقف بينك وبينه، بجسدها النحيل، بساقيها الرفيعتين، بشعرها الأبيض الذي يطير في الريح كراية، وبالطوق النحاسي على عنقها، وطرطوش، يتوقف، على بعد ذراع منها

"ابتعدي يا مؤمنة،" يقول بصوته الحديدي، "أنتِ ملك الملك، لا تستطيعين أن تمنعيني، الطوق على عنقك"

"أعرف،" تقول سلمى

"إن قرأتِ، سيحرقك الطوق"

"أعرف"

وتقرأ

لأول مرة منذ عشرين سنة، أسمع صوت سلمى، صوتها الحقيقي، بعد عشرين سنة من الهمس ورسائل الفراشات، ورغم أن الكلمات تصلني كإبر، كصفير حادّ يمزّق أذنيّ، أسمع شيئًا آخر تحتها، شيئًا لم أسمعه من قبل في هذه الكلمات.

أسمع جمالها

والطوق على عنقها يحمرّ كالحديد في الكير، ويدخن، وأشمّ رائحة شعرها الأبيض وهو يحترق عند العنق، وأرى جلدها هناك، يتشقق، ويسودّ، لكنها لا تتوقف

وطرطوش يحاول

يرفع ذراعه الطويلة ويضرب الهواء أمامها، فتطير أظافره الحديدية على بعد إصبع من وجهها، وتقدح شررًا في النور الذي يحيط بها، ويحاول مرة أخرى، من الجانب، فتلتفت هي معه، كأنها تعرف أين سيضرب قبل أن يضرب، ويحاول من فوق، ينحني بجسده الطويل كالقوس ويهوي برأسه الطفولي الصغير نحوها، وفمه مفتوح، والظلام في داخله.

وتنظر سلمى في ذلك الظلام، وترفع صوتها، ويرتدّ طرطوش كأن جدارًا ضربه في وجهه

وطرطوش يتراجع، خطوة، خطوتين، ذراعه مرفوعة أمام وجهه، وعينه الواحدة تضيق حتى تصير خطًا أصفر رفيعًا

"فكّها!" أصرخ بك، "الآن!"

أنت تنظر إلى العقدة في يدك، صغيرة جدًا، شعرة واحدة، معقودة عقدة صغيرة، وأصابعك المحترقة السوداء، خشنة كالفحم، لا تستطيع أن تمسك شيئًا بهذا الصغر.

تحاول، تفشل، تحاول مرة أخرى

وعند الحجر الأسود، يرتفع صوت مرعي، لقد وصل إلى الصفحة الأخيرة في كتابه الأسود

"الكلمة الأخيرة!" يصرخ الملك، "قلها يا مرعي! قلها الآن!"

والحارسة الحجرية، تفتح فمها، لأول مرة

وفي داخل فمها، ذهب سائل، يغلي، يلمع، يسيل من بين شفتيها الحجريتين ويقطر على الحجر الأسود، قطرة قطرة، نحو التجويف، نحو يوسف، تنتظر الدم

ومرعي يرفع السكين

أنت ترفع العقدة إلى فمك

وتضعها بين أسنانك

وتشدّ

ولا شيء

العقدة لا تنفك، الشعرة قوية، أقوى مما ينبغي لشعرة، لأنها صارت بابًا، وفيه كل ما أنت، تشدّ مرة أخرى، أسنانك تؤلمك، لثتك تنزف

والسكين في يد مرعي، ترتفع أعلى، ويده ترتجف، ودموعه تتساقط على صدر يوسف

"قلها!" يصرخ الملك

ويفتح مرعي فمه

ويسمع صوتًا

من البوابة، صوت خطوات حافية، بطيئة، على الحجر

يلتفت مرعي

وتلتفت أنت

وألتفت أنا

في القوس الكبير، خلف حليمة الساقطة على ركبتيها، تقف امرأة، نحيلة، بثوب رمادي، وجديلة سوداء طويلة، وعينين بيضاوين، آمنة

يدها اليمنى على الحائط، تتحسس طريقها، ويدها اليسرى، على حلقها، حيث كان صوتها، وحولها، يا صاحبي، انظر

الضوء الذهبي بقي بعد ذهاب صوتها

إنه هنا، أقوى من أي وقت مضى

أقوى من غرفتها، أقوى من قبر جدتك، يخرج منها كما تخرج الشمس من وراء جبل، ويملأ القوس، ويسيل في الفناء، ويلمس الخدم الثلاثة، فيذوبون، يذوبون كالشمع.

آمنة بلا صوت، لكن شفتيها تتحركان، وأنا الذي أقرأ الشفاه، أعرف ما تقول، إنها تقرأ بقلبها

ومرعي، يتجمّد، السكين في الهواء، وعيناه على ابنته

"آمنة،" يهمس

وفي تلك اللحظة الواحدة التي توقف فيها كل شيء،

تنفكّ العقدة بين أسنانك

وتأتي الكلمات

صوت أمك

قالت لك سلمى إنها ستأتي كالسيل، لم تبالغ انفكّت العقدة بين أسنانك، وانفتح الباب، وانهمر من خلاله كل ما خبّأته على عنقي طوال الليلة، وأكثر، لأن الباب حين ينفتح بعد إغلاق طويل لا يُخرج ما وُضع فيه فقط، يُخرج معه كل ما تراكم خلفه، كل كلمة نسيتها منذ ولدت، كل اسم مرّ بك ولم تحفظه، كل جملة سمعتها في سوق أو حافلة أو غرفة انتظار.

رأيتها تخرج من الشعرة المحلولة كالدخان الكثيف، ثم تتكاثف، ثم تصير حروفًا، ملايين الحروف السوداء والبيضاء والملونة، تدور حولك في دوامة، وتدخل في أذنيك، وفي عينيك، وفي فمك المفتوح.

وأنت تغرق

أراك تغرق، ركبتاك تنثنيان، وتسقط على حجارة الفناء، ويداك على رأسك، وجهك يتلوّى، وفمك يتحرك بسرعة مجنونة، يردد ما يدخله دون أن يفهمه، أسماء زملاء الصف الأول، "سامر، لؤي، هبة، أحمد الطويل، أحمد القصير."

أغنية إعلان تلفزيوني عن مسحوق غسيل، جدول الضرب، "سبعة في ثمانية، ستة وخمسون" اسم الشارع الذي ولدت فيه، اسم البقال، اسم القطة الرمادية في بيت جدتك.

"ليلى"

نعم، اسمها أيضًا، يمرّ بك كطعنة، ثم يمضي

ثم أسماء أدوية، أرقام هواتف، شتيمة سمعتها من سائق تكسي حين كنت في العاشرة، سطر من قصيدة حفظته في الإعدادية، عنوان فيلم، وصفة كبة كانت أمك تقولها لجارتها على الهاتف.

كلها معًا، كلها في وقت واحد

ومع كل كلمة، صورة، لأن الكلمات لا تأتي وحدها، كل كلمة تحمل على ظهرها اللحظة التي سمعتها فيها، كما يحمل الحلزون بيته

"دُسْ على الدوّاسة يا بنيّ، لا تخف" وأبوك يركض خلف دراجتك الحمراء الصغيرة في الشارع الخلفي، ويده على المقعد، ثم يفلت يده دون أن تعرف، وأنت تمضي وحدك وتضحك.

"ناجح!" ورقة معلّقة على لوح زجاجي في مدرسة، واسمك في السطر الخامس، وأمك تزغرد في الشارع أمام الناس فتخجل

"الله يرحمها" ورجال بثياب سوداء يصافحونك في بيت جدتك، وأنت تقف كالحجر ولا تبكي

"آسف، حصل تغيير في القرار"

"غدًا"

"ليلى"

"صاحبي"

الصور تدور مع الكلمات، والكلمات تدور مع الصور، وكلها تتداخل حتى لا تعرف أين ينتهي يوم ويبدأ آخر، ولا أيّها حدث فعلًا وأيّها حلمت به.

وأنت في وسطها، تمدّ يديك نحو كل شيء، ولا تمسك شيئًا

ثم اسمك

أراه يدخل، أراه يطفو في الدوامة، ينقلب، يقترب منك، ثم يبتعد، وأنت تمدّ يدك إليه، وتمسكه، وأسمعك تقوله، لأول مرة منذ ساعات، بصوت مسموع، بصوتك أنت.

اسمك، لن أكتبه هنا، ليس من حقي، ولا من حق هذا الكتاب، اسمك لك

لكنه لا يكفي، الدوامة ما زالت تدور، والكلمات ما زالت تنهمر، وأنت ما زلت راكعًا على الحجارة، تمسك اسمك بيد، وتغرق بالأخرى، وتبحث عن الاسم الآخر، الأكبر، الذي إن قلته، انتهى كل شيء.

ولا تجده

لماذا؟

لأن سلمى كانت محقة، لا تبحث عن الاسم الأكبر يسكن أعمق من الحروف الطافية، في مكان ما تحت الكلمات كلها، أبعد من جدول الضرب وأغنية الإعلان، ومن يطارده كما يطارد فراشة، يتعب.

وأنت تبحث بين الكلمات

وعند الحجر الأسود، مرعي ما زال متجمدًا، السكين في الهواء، عيناه على آمنة، والملك يصرخ

"يا مرعي! انظر إليّ! انظر إليّ أنا! الكلمة الأخيرة!"

ومرعي، يرتجف، ثم ببطء شديد، يدير رأسه بعيدًا عن ابنته، نحو الضباب الأحمر، نحو الملك

ويفتح فمه

وأنا، أقف بجانبك، ولا أعرف ماذا أتمنى

جزء مني يريدك أن تغرق، أن تضيع في الدوامة، أن تنسى ما كنت تبحث عنه، فتمرّ اللحظة، وتنزل السكين، ويُكتب العقد بدمك ودم الطفل، وأتحرر.

وجزء آخر، الجزء الذي أعطاك العقدة، يقف على أطراف أصابعه، ويشدّ قبضتيه، ويهمس دون أن أسمح له: تذكّر، تذكّر، تذكّر

ولا أعرف أيّ الجزأين أنا

ثم أسمع شيئًا

من البوابة يأتي

حليمة

ما زالت على ركبتيها في القوس الحجري، الدم يسيل من قدميها، شعرها على وجهها، والخدم الذين كانوا يمنعونها ذابوا في ضوء آمنة، والطريق أمامها مفتوح، لكنها لا تقوم.

تقرأ، صوتها ما زال ضعيفًا، مبحوحًا، مقطّعًا، لكنه صوت أم

صوت أم تقرأ على ابنها

وأراك تتوقف

الدوامة ما زالت تدور حولك، الكلمات ما زالت تنهمر، لكنك توقفت عن المطاردة، ورفعت رأسك، وأغمضت عينيك

وأنا أعرف ما تفعله، لأنني كنت هناك

أنت تتذكر

غرفتك وأنت في الخامسة، السرير الصغير بغطائه الأزرق المرسوم عليه سفن، الضوء الخافت من الممر، يدخل من شقّ الباب تخيط أصفر على الأرض، وصوت الثلاجة البعيد، ورائحة يدي أمك.

بصل وصابون

كانت تأتي كل ليلة، بعد أن تغسل الصحون وتطفئ التلفاز وتطمئن على أبيك، تجلس على حافة سريرك، ثقلها يجعل الفرشة تميل قليلًا، فتنزلق نحوها، وتلتصق بفخذها الدافئ.

وتقرأ

كانت تقرأ همسًا خفيفًا، منتظمًا، كالمطر الناعم على سطح من الصفيح، وكانت تجمع كفّيها أمام فمها، وتقرأ فيهما، ثم تنفخ، ثم تمسح بهما على رأسك، ووجهك، وصدرك، وذراعيك، حتى قدميك.

ثلاث مرات، كل ليلة، منذ ولدت حتى صرت في الرابعة عشرة، وصرت تخجل، وصرت تقول لها: كفى يا أمي، لقد كبرت

وكنت أنا، كنت أنا في الزاوية، كل ليلة، أحترق

الكلمات كانت تصلني إبرًا، أما الإيقاع، فكنت أسمعه، همسة، نفخة، مسحة، همسة، نفخة، مسحة، همسة، نفخة، مسحة

وأنت الآن، في وسط الخان، راكعًا على الحجارة، والدوامة تدور حولك، تجمع كفّيك أمام فمك

لا

لا، يا صاحبي

انتظر

أنت تبحث عن الإيقاع، وتترك الكلمات، وتجده

همسة

شفتاك تتحركان في كفّيك، بلا كلمات أولًا، فقط، الحركة التي حفظتها شفتاك قبل أن يحفظها عقلك، الحركة التي رأيتها على شفتي أمك ألف ليلة وليلة وأنت نصف نائم، ثم من تحت الحركة، من مكان أعمق من الذاكرة، أعمق من الاسم، كما قالت جدتك.

تأتي الكلمات

من صدرك، من تحت الدوامة كلها

وأسمعها، للمرة الأولى في حياتي، أسمعها بوضوح

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾

وتحترق أذناي

لكنني لا أتراجع، لا أعرف لماذا، أبقى واقفًا خلفك، وأسمع، والنار تأكل أذنيّ، وأسمع



﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾

النفّاثات في العقد

ونفخة

تنفخ في كفّيك

وتمسح بهما على وجهك

وتتوقف الدوامة

الكلمات، كل الكلمات، ملايين الحروف التي كانت تدور حولك كالإعصار، تتوقف في الهواء، معلقة، ساكنة، كأن أحدًا ضغط زر الإيقاف، ثم تسقط كالمطر، على الحجارة، على الحجر الأسود، على الضباب الأحمر، على طرطوش، على الحارسة الحجرية.

وحيثما تسقط، تضيء

وأنت تقف

تقف على قدميك، وأرى يدك اليمنى، المحترقة، الأثر الأسود الذي وصل إلى كتفك، يتشقق، كالطين الجاف، ويتساقط منه قشور سوداء، ومن تحتها، جلد، جلدك

وتنظر حولك، إلى يوسف، على الحجر، صدره الصغير يرتفع وينخفض، إلى حليمة، في البوابة، على ركبتيها، تقرأ، إلى آمنة، واقفة في القوس، والضوء يسيل منها كالماء، إلى سلمى، أمام طرطوش، والطوق يحترق على عنقها.

إلى مرعي، والسكين في يده، ثم إليّ، لحظة، وفي عينيك، أرى شيئًا لا أعرف اسمه، شيئًا أبعد ما يكون عن الغضب والكره اللذين توقعتهما

وتنظر إلى الضباب الأحمر، إلى الملك

والملك، لأول مرة منذ رأيته، لا يبتسم، وجهه يتغير بسرعة، وجوه تتلاحق كأوراق كتاب يُقلّب في عاصفة، ولا يستقر على وجه

"لا تقلها،" يقول

بصوت واحد، صوت، خائف

"اسمع،" يقول الملك بسرعة، والوجوه تتلاحق في ضبابه، "اسمع يا صاحبي، أعطيك ما تريد، لا حاجة للتوقيع، لا حاجة للدم، ليلى، أعيدها لك، أجعلها تترك زوجها

وتأتيك باكية، الطب، أجعلك طبيباً غدًا، الذهب الذي تحت الحجر، كله لك، وأمك لن تمرض أبدًا، لن تموت قبلك.

فقط، لا تقلها، اسكت، وعُد إلى بيتك، ونمْ"

وأرى ترددك، لحظة واحدة، ليلى

ثم أرى يدك، ترتفع إلى وجهك، حيث مسحت بكفّيك بعد النفخة، وتشمّها، بصل، وصابون، وأنت تفتح فمك

وتقولها

"بِسْمِ اللَّهِ"

ويتشقق العالم

ثمن الرصد

تذكر حين قلت لك في أول الليل إن العالم المرصود مبنيّ من نسيان ذلك الاسم، وإن ذكره هناك سيشقق ما حولك كما يتشقق الزجاج تحت الماء المغلي؟ كنت أكذب في أشياء كثيرة تلك الليلة.

في هذه، صدقت

بدأ الشقّ من تحت قدميك

خط أبيض رفيع، نحيط من نور، ظهر في الحجر الذي تقف عليه، ثم امتدّ، عبر الفناء كله في نصف ثانية، كما يعبر البرق السماء، ثم تفرّع، خطّان، أربعة، عشرة، مئة، حتى صارت أرض الخان كلها شبكة من الشقوق المضيئة، وكأن الحجارة كانت قشرة رقيقة فوق شمس مدفونة.

وصعد الضوء من الشقوق، وصعد معه صوت

لم أسمع صوتًا كهذا في حياتي، كان أشبه بآلاف الأقفال تنفتح في لحظة واحدة، طقطقة متصلة، حادّة، تملأ الهواء، وأدركت ما هي، إنها أقفال جدران قاعة الملك، في الطبقة السابعة.

تنفتح

والضباب الأحمر يصرخ

يدور حول الفناء بسرعة مجنونة، يضرب الأسوار، ويرتدّ عنها، ويضرب مرة أخرى، كطائر محبوس في غرفة يبحث عن نافذة، والوجوه فيه تظهر وتختفي بسرعة لا تُتابع، وكل وجه يصرخ.

وأنت لم تتوقف

بعد "بسم الله"، جاء ما بعدها، تعرفه، حفظته في الصف الثالث، وكانت معلمتك تضرب على الطاولة بالمسطرة مع كل كلمة لتحفظوا الوزن، وقرأته في كل امتحان، وكل سفر، وكل ليلة خفت فيها من الظلام، وقرأته أمك عليك ألف مرة.

وأنا أعرف هذه الآية أكثر مما أعرف أي شيء آخر، لأنها الآية التي احترقت بها أكثر من غيرها، كل ليلة، في الزاوية، ومع ذلك، لم أسمعها حقًّا إلا الآن.

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

صوتك يرتفع في الخان المهدم

صوت عادي، أضعف بكثير من صوت آمنة الذي يبكي له الجيران، صوت رجل في الثانية والثلاثين، مبحوح قليلًا، يرتجف في آخر الكلمات، لكنه يصل إلى كل شيء.



﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾

والحارسة الحجرية تغلق فمها، الذهب السائل الذي كان يقطر من شفتيها نحو يوسف، يتوقف، يتجمد على الحجر الأسود كشمع بارد، وعيناها الذهبيتان، تتسعان، وتنظر إليك.

وأرى فيهما شيئًا يشبه التعب، ألف سنة من الانتظار في الظلام

﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

وطرطوش يسقط على ركبتيه

ذلك الهيكل الحديدي الطويل، الذي ذوّب جدارًا بمجرد مروره، والذي أخرج صوت آمنة من حلقها كما يُخرج خيط من بكرة، ينهار، ذراعاه الطويلتان تضربان الأرض، وأظافره الحديدية تتلوّى وتذوب، وعينه الصفراء الواحدة، تتسع، ثم تتشقق، كبيضة.

ومن عينه المتشققة، يخرج خيط فضيّ

يا صاحبي، انظر إليه

صوت آمنة

ابتلعه طرطوش في الفناء، ثم حمله إلى الأسفل، وقدّمه للملك في قارورة، لكن الخادم الذي يحمل شيئًا يبقى مربوطًا به، والآن، وطرطوش يذوب، والطبقة السابعة تتشقق تحتنا، والقارورة على ذراع العرش البعيد تتكسر.

يعود الخيط إلى صاحبته

يطير الخيط الفضيّ في الهواء، فوق الشقوق المضيئة، يتلوّى كأفعى صغيرة سعيدة، ويعبر الفناء، نحو البوابة، نحو آمنة الواقفة في القوس، ويدخل فمها المفتوح وتشهق آمنة، شهقة طويلة، مسموعة، ثم تقول:

"أبي"

بصوتها

ذلك الصوت، الماء بين الحصى، الضوء، لم يتغير

أما مرعي، فيسمعها، السكين في يده المرفوعة، الكتاب الأسود في يده الأخرى، واقف عند رأس الحجر، ويوسف ممدد تحته في التجويف، ويسمع ابنته تناديه

ويسقط الكتاب الأسود من يده، يسقط على الحجارة المشققة، ويشتعل بلهب أبيض، وصفحاته السوداء ذات الحروف الحمراء تتقلص وتتلوّى وتصير رمادًا خلال ثوانٍ

وفي المدينة، في تلك اللحظة نفسها، وأنت تقرأ في الخان، حدثت أشياء لم يرها أحد غيري، لأنني كنت أرى الخيوط

في الطابق السابع من العمارة البيضاء في الحيّ الجديد، انفكّ الخيط الأحمر الملفوف حول رأس مدير البنك كعمامة، وتنهّد الرجل في نومه تنهيدة طويلة، ونام حتى الظهر لأول مرة منذ سبع سنوات، وتأخر عن عمله، ولم يهتم.

وفي البيت الثالث في شارعكم، فوق خزانة رهف، سقط الكائن الصدئ الجالس على ركبتيه، سقط على الأرض كدمية مقطوعة الخيوط، والسلسلة الرفيعة على عنقه انقطعت، ونظر حوله بعينيه البيضاوين، كأنه استيقظ من نوم طويل لا يذكر كيف دخل فيه، ثم خرج من النافذة، ولم يعد.

وفي البيت المقابل، تحت سرير سليم، توقف زعرور عن الهمس، رفع رأسه المائل، وأصغى، ثم زحف بهدوء إلى شقّ الجدار، وعاد إلى البئر المردومة تحت موقف السيارات، ونام هناك.

وفي الطابق الرابع من العمارة المجاورة، في غرفة الابن المسافر، توقف الأب الرمادي الطويل عن التصاقه بالزاوية العليا، نزل ببطء، وجمع أطفاله الخمسة، وزوجته المسطحة تحت السرير، وخرجوا جميعًا من الجدار.

وحين فتحت الحاجة أم فاروق تلك الغرفة بعد أسبوع لتنفض الغبار، شعرت لأول مرة منذ اثنتي عشرة سنة أن الهواء فيها خفيف، ففتحت النافذة، وجلست على سرير ابنها.

وقرأت

﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾

والضباب الأحمر، يتوقف عن الدوران، ويتكثف كله في نقطة واحدة، فوق الحجر الأسود، فوق يوسف، ويصير وجهًا واحدًا، وجهًا لا يتغير هذه المرة

لا أعرف إن كان وجه الملك الحقيقي، ربما لم يكن له وجه حقيقي أبدًا، لكنه الوجه الذي بقي، حين سقطت كل الوجوه المستعارة، وجه رجل عجوز للغاية، ضامر، أصلع، بجلد رمادي ملتصق بالعظم، وعينين صغيرتين كحبتي عدس محروق.

وجه صغير جدًا

"الشرط!" يصرخ بصوت رفيع كصوت طفل خائف، "الشرط يا حارسة! العهد قائم! الرصد لا يُغلق دون دم! هذا العهد أقدم من هذا الاسم الذي يقوله! أقدم منه!"

وتصمت أنت لحظة

وأرى في عينيك أنك لا تعرف، لا تعرف إن كان محقًّا

العهد قائم، والحارسة مربوطة به منذ ألف سنة، والشرط دم، وأنت رجل عادي يقرأ آية حفظها في الصف الثالث، لا تعرف أحكام الأرصاد ولا قوانين العهود.

وتنظر الحارسة إليك، ثم إلى يوسف، ثم إلى مرعي

"الشرط دم،" تقول بصوت الجرس الغارق، "العهد يقول دم، لا يقول دم من"

صمت

ثم أفهم، وأرى أنك تفهم أيضًا

وأرى أن مرعي فهم قبلنا جميعًا

ينظر الشيخ مرعي إلى السكين في يده، ثم إلى يوسف، النائم في التجويف، الطوق الأحمر حول عنقه ما زال ينبض، لكن أضعف، ثم إلى البوابة.

إلى آمنة

ابنته، العمياء، التي باع عينيها حين كانت في العاشرة، وباع صوتها بالأمس، والتي جاءت الآن، حافية، وحدها، عبر الحقول، تتحسس الجدران، لتقف عند بوابة خان مهدم وتنادي أباها.

"آمنة،" يقول بصوت مكسور، "سامحيني يا ابنتي"

قالها أمس، في الفناء، ويده على فمها، لكنه الآن يقولها مختلفة

وتمدّ آمنة يدها في الهواء، نحو صوته

"أبي، تعال إليّ"

ويبتسم مرعي، أول ابتسامة حقيقية أراها على وجهه، ابتسامة رجل كان يومًا ما فقيرًا، يعلّم ابنته الحروف على ضوء شمعة

ثم يدير السكين، نحو صدره

لا!

هذا صوتك، أنت صرخت

لكن مرعي لا يتوقف

ولن أصف لك ما حدث بعد ذلك، سأقول فقط إن الدم، دمه، سال على الحجر الأسود، في الخطوط المحفورة، في الدوائر والعيون والأفاعي والمفاتيح، وإن النقوش التي كانت تضيء بالأحمر، أضاءت بالأبيض.

وإن الحارسة الحجرية أغمضت عينيها الذهبيتين، وقالت:

"تمّ العهد"

وغاصت في الحجر

ببطء، كما خرجت، رأسها الجميل المرعب، يداها الضخمتان، حتى لم يبقَ منها شيء، إلا نقش صغير على سطح الحجر، على شكل خاتم ممحوّ نصفه، ثم حتى النقش اختفى.

وصار الحجر الأسود حجرًا، مجرد حجر

ثم قامت حليمة من عند البوابة، كل ما رأته رجلٌ بجلباب أسود يسقط على الحجارة بجانب الحجر، وابنها ممدد فوقه، وجرت

بقدميها النازفتين، عبر الفناء، ومرّت بجانبك دون أن تراك، ومرّت من خلالي، نعم، من خلالي، وشعرت بها تمرّ كما يمرّ تيار ماء دافئ، واحترقت، ووصلت إلى الحجر.

ورفعت يوسف بين ذراعيها

وكان الطوق الأحمر حول عنقه، حين لمسته يدها، ينفكّ، الخيط الأسود ينحلّ من تلقاء نفسه، والصرّة الجلدية الصغيرة تسقط على الحجر الأسود، وتنطفئ كجمرة في الماء.

وفتح يوسف عينيه، ونظر إلى أمه، وقال بصوت ناعس، كأنه استيقظ في سريره في صباح عادي:

"أمي، لماذا تنزف قدماك؟"

وضمّته حليمة إلى صدرها، وجلست على الأرض بجانب الحجر، وبكت

والكنز تحته؟ لا أعرف، ربما ما زال هناك، ربما لم يكن هناك كنز أبدًا، ربما كان الكنز هو الحارسة نفسها، وقد تحررت أخيرًا، لا يهمّ.

والضباب الأحمر، ذلك الوجه العجوز الضامر، لم يستسلم بعد

يتكثف دفعة واحدة، ويندفع نحوك كموجة سوداء، ويلتفّ حولك من كل جهة، وفي داخله تظهر الوجوه من جديد، وجوه أقرب إليك هذه المرة، وجه أمك تبكي وتقول لك: اسكت يا حبيبي، اسكت وتعال إلى البيت، وجه جدتك تمدّ يدها من الظل، وجه ليلى تبتسم كما ابتسمت في الحديقة قبل أن تصرخ، كلها تهمس بصوت واحد: اسكت، اسكت، اسكت.

ويرتجف صوتك، تتعثر الكلمات على لسانك، تنسى الآية التالية لحظة، لحظة واحدة، وأرى الضباب يدخل فمك المفتوح كالدخان

ثم يرتفع صوت من البوابة

آمنة

بصوتها الذي عاد إليها للتو، تقرأ الآية نفسها، من حيث توقفتَ أنت، ويلحق بها صوت حليمة المبحوح، ثم صوت ثالث، رقيق، من بين الشقوق المضيئة، صوت سلمى والطوق يحترق على عنقها.

ثلاثة أصوات تحملك كما يحمل الماء غريقًا، وتلتقط الكلمة التي أفلتت منك

ويتمزق الضباب عن وجهك كقماش قديم، وتسقط الوجوه المستعارة عنه واحدًا بعد الآخر، حتى لا يبقى إلا ذلك الوجه العجوز الصغير، معلّقًا في الهواء، يفتح فمه ليقول شيئًا أخيرًا.

﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾

وتنهي الآية

وينطفئ الوجه، كشمعة

ويتشقق الخان كله

الأسوار، الغرف، البوابة، الحجارة، كلها تتشقق بالنور الأبيض، والنور يصعد، ويصعد، ويملأ كل شيء، وأشعر بالأرض تختفي من تحت قدمي، وأراك تسقط

وأمدّ يدي

وأمسكك

الفجر

نسقط معًا، يدي على معصمك، ويدك التي عادت جلدًا، تمسك ساعدي، ولا أعرف من منّا يمسك الآخر والنور الأبيض حولنا من كل جهة، لا فوق ولا تحت، لا أرض ولا سماء، نور فقط، كثيف كالحليب، دافئ كالماء الذي تغتسل به بعد يوم طويل في البرد.

وهو يحرقني

لا أخفي عليك، يحرقني كما لم يحرقني شيء من قبل، أشعر بجلدي، أو ما يشبه الجلد عندي، يتقشّر، أشعر بأطرافي تخفّ، أشعر بشيء ينسلخ عني، طبقة بعد طبقة، كما تنسلخ الأفعى من جلدها القديم.

لكنني لا أفلتك

ونمرّ بالطبقات، لكنها تغيّرت منذ نزولنا

طبقة الماء الأسود، صافية، ماء رقراق يجري فوق حصى أبيض، وفيه أسماك صغيرة فضية، طبقة الوجوه، فارغة، والوجوه التي كانت معلّقة فيها، أراها تصعد معنا، خفيفة، كفقاعات الهواء في الماء، وكل وجه يبتسم.

طبقة الأسماء، الحروف التي كانت تطفو كرماد الورق، تتجمع في كلمات، والكلمات تطير صاعدة، كل واحدة إلى صاحبها، أرى اسمًا يطير نحو المدينة، نحو بيت في الحيّ الجديد، نحو مدير البنك الذي لا ينام إلا ثلاث ساعات، أرى اسمًا آخر يطير نحو الجنوب، نحو القرى.

طبقة الأفواه، يا صاحبي، انظر، الأفواه بلا وجوه، كلها تتكلم الآن، كلها تضحك، كلها تبكي، كلها تقول شيئًا، وأصواتها تصعد معنا كسرب من العصافير

وطبقة الخيوط

الخيوط الحمراء والسوداء، ملايين الأعمال المربوطة بالأسفل، تنقطع

لا كلها، لا أكذب عليك، أرى خيوطًا كثيرة ما زالت هناك، سوداء، مشدودة، لا تنقطع، أعمال مربوطة بعهود أخرى، وسحرة آخرين، وملوك آخرين في طبقات أخرى لم نصل إليها.

العالم المرصود أكبر من ملك واحد، ورأيت، ونحن نسقط، من فتحة في النور الأبيض، سوق الطلاسم

القاعة الكبيرة ذات الأعمدة السوداء، تهتز، المشاعل الخضراء تنطفئ واحدة بعد واحدة، والدكاكين المتراكمة كأعشاش الدبابير تنهار على بعضها، والمخلوقات في الممرات تجري في كل اتجاه، ذو رأس الحمار يجرّ ذيله الطويل، والثلاثة الملتصقون من أكتافهم يتجادلون في أي اتجاه يهربون.

وخلف الستارة الجلدية، الأقفاص، تنفتح

واحدًا بعد الآخر، الأبواب الحديدية تصرّ وتسقط، والخدم الصغار الرماديون يخرجون، رويدًا، وينظرون حولهم بعيونهم البيضاء، كأسرى خرجوا من سجن ولا يعرفون أين بيوتهم، ودكان أبي زريق فارغ، الطاولة الطويلة مقلوبة، القوارير محطمة، والشعرات المعقودة تحترق على الأرض كفتائل صغيرة، أما أبو زريق نفسه، فلم أره، ولا الدفتر.

وكل خيط كان مربوطًا بدفتر أبي زريق، بقاعة شمهل، بعرش المفاتيح، ينقطع

وأرى خيطًا أحمر قاتمًا، بلون الدم الذي جفّ، خيط رهف، ينقطع

وأرى خيطًا آخر، أحمر، قديم جدًا، مربوطًا بسبع عقد

يمتدّ من مكان ما خارج المدينة، من تلّة نفايات قديمة فوقها اليوم مصنع للإسمنت، حيث دُفنت صرّة حمراء ملفوفة بقماش أخضر منذ عشرين سنة، وينتهي عندي.

عند عنقي

خيط عملك، خيطي

وأراه يحترق، من طرفه البعيد، من تحت المصنع، يحترق بلهب أبيض صغير، ويزحف اللهب على الخيط نحونا، ببطء، عقدة بعد عقدة، الأولى، الثانية، الثالثة

وأشعر بكل عقدة تنفكّ، كأن أحدًا يفكّ سلسلة حديدية كانت ملفوفة حول صدري منذ ولدت، الرابعة، الخامسة، السادسة

والسابعة

يصل اللهب إلى عنقي

وأصرخ

لا أعرف إن كانت صرخة ألم أم شيئًا آخر، لم أصرخ هكذا من قبل، ولا أعرف ماذا يحدث لي

ثم أفلتّ يدك

أو شيء انتزعها مني

لا أعرف

بلاط، بارد

تفتح عينيك

بلاط أبيض بفواصل رمادية، وقطرة ماء تسقط من الحنفية كل ثلاث ثوانٍ، طك، طك، طك، ورائحة صابون، ورائحة رطوبة، وضوء رمادي باهت يدخل من النافذة الصغيرة العالية.

ضوء الفجر

أنت في الحمّام، على الأرض، خدّك على البلاط

وجسدك ثقيل للغاية، كأنك عدت من سفر طويل جدًا ونمت في ثيابك، كل عضلة تؤلمك، رأسك يدقّ، ولسانك جاف كالورق، لكنه جسدك

وتسمع صوتًا

صوت امرأة، بجانبك، تقرأ

همسًا خفيفًا منتظمًا، كالمطر الناعم على سطح من الصفيح

ترفع رأسك ببطء

أمك

جالسة على أرض الحمّام بجانبك، بثوب الصلاة الأبيض، شعرها مغطى، ووجهها شاحب، والجلد تحت عينيها منتفخ، كأنها لم تنم، كأنها بكت، وكفّاها مجموعتان أمام فمها.

تقرأ فيهما، ثم تنفخ، ثم تمسح بهما على رأسك

همسة، نفخة، مسحة

"أمي"

صوتك يخرج مبحوحًا، ضعيفًا، لكنه صوتك

نتوقف أمك، تنظر إليك، وتنفجر في البكاء

"يا حبيبي، يا قلبي، لك الحمد يا رب، لك الحمد"

وتحتضنك، تضمّ رأسك إلى صدرها، وتهتز وهي تبكي، وأنت تشمّ رائحتها، بصل وصابون، ورائحة أخرى، ماء الوضوء

"قمت لأتوضأ للفجر،" تقول وهي تبكي، "وجدتك هنا، على الأرض، لا تتحرك، لا تتنفس جيدًا، عيناك مفتوحتان ولا تريانني، ناديتك فلم تجب، خفت، يا رب كم خفت، خفت أن أنادي أباك فيرى ما رأيت."

ونتوقف، لا تكمل

"لا أعرف لماذا،" تقول بعد لحظة، بصوت أهدأ، "لكنني جلست بجانبك وبدأت أقرأ، كما كنت أفعل وأنت صغير، أتذكر؟ كل ليلة كنت أقرأ عليك، وقلت في نفسي: إن كان شيء قد أخذك، فهذا سيعيدك."

ومن المسجد القريب، يرتفع الأذان

"الله أكبر، الله أكبر"

وأنت تسمعه كأنك تسمعه لأول مرة في حياتك

كل كلمة واضحة، نقية، تدخل أذنيك كالماء البارد في يوم حارّ، لا إبر، لا صفير، لا حريق

وتبكي

تبكي كما لم تبكِ منذ زمن، منذ متى؟ منذ جنازة جدتك، حين لم تبكِ

الآن تبكي، كل الدموع المحبوسة، عشرين سنة منها، تنزل على خدّيك، وعلى ثوب أمك الأبيض، وعلى بلاط الحمّام البارد، وأمك تمسح على رأسك، ولا تسأل.

ثم صوت خطوات في الممر، ثقيلة، ناعسة، ويظهر أبوك عند باب الحمّام، بقميص داخلي أبيض وبنطال بيجاما مخطط، شعره منكوش وعيناه نصف مغمضتين

"ما الأمر؟ لماذا الضوء مشتعل؟"

ثم يراك، على الأرض، وأمك تحضنك، وأنتما تبكيان، ويستيقظ تمامًا

"ماذا حدث؟! ما به الولد؟!"

وتنظر أمك إليه، ثم إليك، ثم تقول بهدوء غريب:

"لا شيء، حلم مزعج، انتهى، ذهب"

ويقف أبوك لحظة، ينظر إليكما، يفتح فمه ليسأل شيئًا آخر، ثم يغلقه، وينحني، ويضع يده الثقيلة الخشنة على رأسك، يد نجّار متقاعد، فيها رائحة نشارة الخشب التي لم تزُل بعد عشرين سنة من الغسل، ويقول: "الحمد لله على السلامة يا ابني."

ثم يمشي ليتوضأ

لم يقل أبوك لك شيئًا كهذا منذ كنت صغيرًا، وأنت لم تكن تعرف كم كنت تحتاجه

ثم ترفع يدك اليمنى، تنظر إليها

جلد عادي، أصابعك الخمسة، أظافرك، شعر خفيف على ظاهر الكف

لكن على طرف إصبع السبابة، حيث لمست المسمار في المقبرة، بقعة صغيرة، سوداء، بحجم حبة العدس

تفركها، لا تزول

"ما هذا؟" تسأل أمك، وتمسك يدك

"لا أعرف" تكذب

وتنظر إلى أصابعك الأخرى، وفي كفّك اليسرى المقبوضة شيء

تفتح أصابعك

شعرة واحدة، محلولة

تنظر إليها طويلًا، ثم تقوم، بتمهّل، تستند على حافة المغسلة، ركبتاك ترتجفان، وتنظر في المرآة

وجهك، شاحب، متعب، عيناك حمراوان، شعرك منكوش، وفوق جبهتك، فراغ صغير، حيث انتزعت الشعرة، وجهك أنت، بعينين ترمشان، وابتسامة بحجمها الطبيعي

وخلف كتفك الأيسر، في الانعكاس:

لا شيء

ظلمة عادية، ظلمة زاوية حمّام في الفجر، لا أحد يقف هناك، لا أحد يتنفس

"هيا يا حبيبي،" تقول أمك، وتقف خلفك، وتضع يدها على كتفك، "توضّأ، لنلحق صلاة الفجر معًا"

ونتوضأ

ولأول مرة منذ سنوات طويلة، تصلي الفجر، بجانب أمك، في غرفتها، حيث الضوء الذهبي

وحين سجدت، بقيت ساجدًا طويلًا للغاية، حتى أنهت أمك صلاتها، وسلّمت، والتفتت إليك، ورأتك ما زلت ساجدًا، وكتفاك تهتزان، ولم تقطع سجودك، جلست بجانبك على السجادة، ووضعت يدها على ظهرك، وانتظرت.

وخارج النافذة، بدأت العصافير، واحد أولًا، ثم اثنان، ثم الشجرة كلها، وفي الشرق، فوق أسطح المدينة، فوق المئذنة، فوق الحيّ القديم والمقبرة وحيّ المدابغ والتلة الجنوبية حيث الخان المهدم، خيط أبيض رفيع.

ثم خيط وردي، ثم الشمس

وأنا؟

أين أنا؟

النهار

أنا هنا لا تبحث عني، لن تجدني خلف أذنك اليسرى، ولا في المرآة ولا في زاوية الممر، أنا بعيد قليلًا الآن، أبعد مما كنت في أي يوم منذ ولدنا، أراك كما يرى الغريق الشاطئ من وسط الموج، صغيرًا، واضحًا، بعيد المنال.

لكنني أراك، وسأحكي لك عن ذلك اليوم، كما رأيته من بعيد، لأنك نسيت نصفه، وستحتاج أن تتذكره

نمت بعد الفجر حتى الظهر

نمت نومًا لم تنمه منذ سنوات، بلا أحلام، بلا استيقاظ في الثالثة، بلا قلب يخفق، نوم ثقيل وأسود ونظيف، كماء بئر عميقة

وحين استيقظت، كانت الشمس على وجهك، وكانت أمك قد تركت على الطاولة بجانب سريرك كوب شاي بارد وصحنًا فيه خبز وزعتر وزيتون، وورقة بخطّها المائل: "لم أرد أن أوقظك، كُل، ذهبت إلى خالتك."

وكان رأسك خفيفًا جدًا، كان اليوم خميسًا، جلست إلى الطاولة وأكلت، كل لقمة، الخبز والزعتر والزيتون، وقلت قبل اللقمة الأولى ما نسيت أن تقوله سنوات طويلة، وانتبهت، وأنت تمضغ، أن الطعام له طعم.

طعم حقيقي، الزعتر حادّ ومالح، والزيتون مرّ قليلًا، والخبز، خبز الفرن الذي في آخر الشارع، فيه حلاوة خفيفة لم تلاحظها من قبل، كأنك كنت تأكل طوال عمرك، وشخص آخر يشاركك اللقمة، ويأخذ نصف طعمها.

أمسكت هاتفك، وأول ما رأيته، خبر

على صفحة إخبارية محلية يتابعها أبوك وكل كبار السن في المدينة، صورة باهتة للخان المهدم على التلة الجنوبية، محاطًا بشريط أصفر للشرطة

"العثور على طفل في السابعة نائمًا داخل خان أثري جنوب المدينة، وبجانبه جثة رجل في الستين، يُعتقد أنه الشيخ (م.ع)، المعروف في الحيّ القديم بمعالجة المرضى بالرقية، وأفادت مصادر بأن والدة الطفل كانت قد عُثر عليها عند بوابة الخان فاقدة الوعي وقدماها مصابتان، وأن ابنة الشيخ الكفيفة كانت برفقتهم، ولم تتضح بعد ملابسات الحادثة، فيما رجّحت مصادر طبية أن الوفاة ناجمة عن"

لم تكمل القراءة، أغلقت الهاتف، وجلست على حافة السرير طويلًا، تنظر إلى البقعة السوداء الصغيرة على طرف سبابتك

ثم لبست ثيابك وخرجت

أول مكان ذهبت إليه، المقبرة، مقبرة التلّ الشرقي، في النهار

كانت كما تعرفها، أشجار يابسة، وأعشاب برية، وشواهد مائلة، قطة نائمة على رخام دافئ، عجوز عند البوابة تبيع الماء والريحان، وصبيّ يركض بين القبور يطارد فراشة، مقبرة عادية، بلا خيوط في الهواء، ولا خدم على الشواهد، ولا غيلان.

لكنك كنت تعرف الطريق، مشيت بين الصفوف دون أن تتردد، يميناً عند الشجرة الكبيرة، ثم الصف الثالث، ثم هناك، قبر صغير، شاهده من رخام أبيض اصفرّ، وفيه شرخ قطري.

"هنا يرقد الطفل أحمد، توفي سنة ١٩٩١"

ووقفت أمامه، وقرأت الفاتحة، ثم انحنيت

في طرف القبر، حيث كانت الحفرة الصغيرة في الليل، تراب عادي، جاف، متماسك، لا أثر لحفر، لكنك حفرت

بيديك، بأظافرك، والتراب يدخل تحت أظافرك ويجرحها، والعجوز عند البوابة تنظر إليك من بعيد وتهزّ رأسها، والصبيّ توقف عن مطاردة الفراشة وصار يراقبك، وحفرت

وفي عمق شبر، قماش أبيض، من النوع الذي تُصنع منه فساتين الأعراس، ملفوف على شيء، ومتسخ بالتراب، ومن تحته، يبرز شيء معدني

لكنه مختلف عما رأيته في الليل، المسمار، صدئ تمامًا، أحمر كالطين المحروق، وحين لمسته، لم يحرقك، وحين شددته، لم يقاوم، تفتّت في يدك، كأنه مصنوع من رمل مبلول.

وفككت القماش، وفي داخله، صورة رهف، بفستان زفافها، مقطوعة من المنتصف، وفي المنتصف ثقب حيث كان المسمار، وخصلة شعر، وثلاثة أظافر صغيرة

جلست على الأرض بجانب قبر الطفل، وأخرجت من جيبك ولاعة أبيك التي سرقتها من درجه وأنت خارج، لأنك كنت تعرف أنك ستحتاجها، وقرأت، ثم أحرقتها.

اشتعل القماش ببطء، ثم بسرعة، والصورة تقلّصت والتوت وصارت رمادًا، والشعر احترق برائحة حادة، والأظافر اسودّت فقط، وبقيت، فدفنتها في التراب، عميقًا، وقرأت عليها

ثم ملأت الحفرة، ثم قمت، ونفضت ثيابك، والعجوز عند البوابة، حين مررت بها في طريق الخروج، أعطتك غصن ريحان دون أن تطلبه، وقالت: "الله يتقبّل منك يا ابني."

ولم تسألك عن شيء

ثم ذهبت إلى بيتك، أقصد إلى الشارع، ووقفت تحت العمارة المقابلة، البيت الثالث، الطابق الثاني

وعلى الشرفة الصغيرة، شاب وامرأة، جالسان على كرسيين بلاستيكيين، بينهما طاولة صغيرة عليها إبريق شاي وكوبان وصحن بذور، المرأة شعرها قصير للغاية، قصير كشعر صبيّ، كأنها قصّته كله مؤخرًا، وأصابع يدها اليمنى ملفوفة بشاش أبيض.

لكنها تضحك

تضحك على شيء قاله الشاب، وتضربه على كتفه بيدها السليمة، وهو يضحك أيضًا، ويمسك يدها الملفوفة بالشاش، ويقبّلها

ورفعت رهف عينيها، ورأتك

رجل غريب يقف تحت العمارة، في ثياب متسخة بالتراب، يحمل غصن ريحان، وينظر إلى شرفتها، كان يجب أن تخاف، أن تنادي زوجها، أن تدخل، لكنها نظرت إليك لحظة طويلة، وفي عينيها، شيء يشبه التذكر، كمن يرى وجهًا رآه في حلم ولا يعرف أين.

ثم ابتسمت، ابتسامة صغيرة، وعادت تنظر إلى زوجها

وفي طريقك، مررت بالبناية المقابلة لبيتكم، الطابق الأول، بيت أبي سليم الميكانيكي، كان الباب مفتوحًا لأن الأم تنظّف الدرج، والماء والصابون يسيلان على

الدرجات الإسمنتية، وفي الداخل، سمعت صوت تلفاز، وصوت طفل يضحك، ورأيت من الباب المفتوح، في آخر الممر، غرفة سليم.

السرير الصغير، لم يعد ملاصقًا للجدار، نقلته الأم إلى وسط الغرفة، وتحته لا شيء، أرضية نظيفة لامعة، وعلى الجدار فوقه، ورقة ملصقة بشريط لاصق، مكتوبة بخط طفل كبير مائل، بأقلام شمع ملونة، كأن أحدًا علّمه أن يكتبها حرفًا حرفًا.

لم تستطع أن تقرأ ما فيها من بعيد، لكنك عرفت، ورأتك الأم واقفًا عند الباب، فاعتدلت ومسحت يديها بمئزرها

"أهلًا، هل تريد شيئًا؟"

"لا، سلمت يداك، كنت مارًّا فقط"

ونظرت إليك نظرة طويلة، نظرة امرأة رأت جارًا لم تره منذ زمن

"أنت ابن جارنا، الذي في البناية المقابلة؟ والله لم أعرفك، صرت تبدو أفضل"

وابتسمت أنت، ومضيت

ثم حيّ المدابغ

وقفت عند أول الزقاق، لم تقترب، الشرطة كانت هناك، سيارتان، ورجال بملابس رسمية يدخلون ويخرجون من البيت الصغير ذي الخزان الأزرق، وجارات واقفات على الأبواب يتهامسن.

وعلى سطح البيت، لا ضوء أحمر، ولا أشكال تجلس على الجدران

وفي الزقاق، بعيدًا عن البيت، أمام دكان صغير، طفل يلعب بكرة بلاستيكية مع ثلاثة أطفال آخرين، نحيل، بشعر أسود قصير، ووجه أسمر، وعنقه، عارٍ، لا خيط أسود، لا صرّة جلدية.

يرفس الكرة، تطير، وتتدحرج نحوك، وتتوقف عند قدميك

ويركض يوسف ليأخذها، ويتوقف، على بعد خطوتين منك

وينظر إليك

وأنت لا تعرف ماذا تقول، لا تعرف إن كان يتذكر، لا تعرف إن كان

"صاحبي!"

يقولها بصوت عالٍ، بفرح، كأنه رأى صديقًا قديمًا، ثم يأخذ الكرة من عند قدميك، ويركض عائدًا إلى أصحابه، دون أن يلتفت

وأخيرًا، الحيّ القديم، الزقاق المسدود، البيت ذو الباب الأزرق

على الباب، ورقة نعي، مطبوعة بالأسود على ورق أبيض، تحت آية قصيرة

"انتقل إلى رحمة الله تعالى، الحاج مرعي"

وتحتها، "والعزاء في دار الفقيد للرجال، وللنساء"

وفوق الباب، اللوح الصغير المحفور، أحدهم عدّله، صار مستقيمًا

ومن المشربية الخشبية فوق الباب، صوت

صوت امرأة تقرأ

ذلك الصوت، الماء بين الحصى، الضوء

ووقفت تحت المشربية، ولم تطرق الباب، ولم تدخل، وقفت فقط، تستمع

والمارّة في الزقاق، توقفوا أيضًا، رجل يحمل كيس خبز، امرأتان بعباءتين سوداوين، صبيّ على دراجة، عامل بثياب ملطخة بالإسمنت، كلهم وقفوا، تحت المشربية، صامتين، وبعضهم، يبكي.

ثم فُتحت نافذة المشربية الصغيرة، وظهر وجه آمنة، بثوب أسود هذه المرة، ثوب حداد، وجديلتها السوداء على كتفها، وعيناها البيضاوان، تنظران إلى الزقاق، إلى لا شيء.

أو إلى شيء، لأنها مالت برأسها قليلًا، كما مالت في غرفتها تلك الليلة، وتحرك أنفها، ثم ابتسمت، ابتسامة صغيرة حزينة، وقالت بصوتها، ذلك الصوت، بهدوء، كأنها تكلّم صديقًا قديمًا يقف تحت نافذتها:

"رائحة صابون، وتراب مبلول"

ثم قالت: "شكرًا" وأغلقت النافذة، وعاد صوتها يقرأ من الداخل، ثم عدت إلى البيت، مع غروب الشمس

وكانت ليلة الخميس

ونمت

ولم يأتِ الصداع

صحن التمر

مرّت الأسابيع، وأنا أراقبك من بعيد لا أعرف كيف أصف لك المكان الذي كنت فيه، أبيض، واسع، صامت، لا جدران فيه ولا أرض، كأنني معلّق في قلب غيمة، وكنت أشعر بجسدي، أو ما بقي منه، خفيفًا كما لم يكن يومًا، لا سلسلة حول عنقي، لا عقد، لا شيء يشدّني إلى صرّة حمراء في الظلام.

احترقت العقد السبع كلها، رأيتها تحترق، وكنت أنتظر أن أحترق معها، لكنني بقيت

ومن ذلك المكان الأبيض، كنت أراك

رأيتك في الأسبوع الأول تنام كل ليلة حتى الصباح، ثم تستيقظ وتنظر إلى السقف دقائق طويلة، كأنك لا تصدق أنك نمت، ورأيتك في الأسبوع الثاني تقف أمام المرآة كل صباح، وتنظر خلف كتفك الأيسر، ثم تتنفس بعمق، وتغسل وجهك.

ورأيتك في الأسبوع الثالث تتلقى مكالمة

رقم لا تعرفه

"أستاذ؟ معك مكتب الموارد البشرية في الشركة، تقدّمت إلينا قبل سنتين لوظيفة محاسب أول، المدير يسأل إن كنت ما زلت مهتمًا، الوظيفة شاغرة من جديد."

الشركة نفسها، البرج الزجاجي نفسه، المدير نفسه

ذهبت إلى المقابلة، وجلست أمامه، ونظر إليك، وقلّب أوراقك، وقال: "ممتاز جدًا" ورنّ هاتفه، وتجمّدتَ، لكنه نظر إلى الشاشة، وأطفأها، ووضع الهاتف مقلوبًا على الطاولة.

وقال: "متى تستطيع أن تبدأ؟"

لم أكن هناك لأهمس له، ولهذا، لأول مرة، سمع ما في داخله هو

ورأيتك تزور قبر جدتك، يوم جمعة، بعد الصلاة، وحدك

جلست على الأرض بجانب الشاهد الحجري البسيط، والنبات الأخضر الصغير ما زال حوله، رغم أن الخريف أيبس كل شيء آخر في المقبرة، وقرأت، ثم تكلمت، لم أسمع ما قلته، كنت بعيدًا جدًا، لكنني رأيت شفتيك، وأنا أقرأ شفتيك أكثر من أي أحد.

كنت تقول: "شكرًا يا جدتي" وكنت تقول: "اتناعشر سنة، كل خميس" وكنت تقول أشياء أخرى، لن أعيدها، هي لكما



ثم، ذات مساء، رأيتك جالسًا مع أمك في المطبخ

كانت تقطّع البصل، وأنت تقشّر البطاطا، والراديو يبثّ أغنية قديمة، وكانت تتحدث عن خالتك، وعن ابن الجيران الذي سافر، وعن سعر الزيت، ثم توقفت عن التقطيع.

ونظرت إلى السكين في يدها، وقالت بصوت خافت:

"أريد أن أخبرك بشيء، لم أخبر به أحدًا منذ عشرين سنة"

ووضعت السكين، ومسحت يديها بالمنشفة، وجلست أمامك

"حين ماتت جدتك، وذهبنا نرتّب أغراضها، وجدت في خزانتها صرّة خضراء مربوطة بخيط أحمر، لم أفهم ما هي، وكنت متعبة، ومقهورة، ومستعجلة، وكنت أريد أن أنتهي.

فرميتها في القمامة، ومنذ ذلك اليوم،" وسكتت، ثم قالت:

"منذ ذلك اليوم تغيّرت، صرت حزينًا، صرت نتعثّر في كل شيء، وكنت أحسّ بذلك، لا أعرف كيف، لكنني كنت أحسّ أن لي يدًا فيه، أن تلك الصرّة كانت شيئًا مهمًا، وأنا رميتها.

وصرت أقرأ عليك كل ليلة، أكثر من قبل، حتى حين صرت تقول لي كفى يا أمي، كنت أنتظرك حتى تنام، فأدخل بهدوء وأقرأ، عشرين سنة."

ولم تقل شيئًا، قمت من كرسيك، ودرت حول الطاولة، وانحنيت، وقبّلت رأسها، ثم يدها، اليد التي رمت الصرّة، واليد التي قرأت عليك عشرين سنة، اليد نفسها.

وبكت أمك، وأنت لم تخبرها بشيء، ولن تخبرها

ورأيتك تذهب إلى حيّ المدابغ مرة أخرى

بعد أسبوعين من تلك الليلة، حين رحلت سيارات الشرطة، ونسي الجيران الحكاية، أو صاروا يحكونها بطرق مختلفة، بعضهم يقول إن الشيخ مات بسكتة قلبية، وبعضهم يقول إن الجن قتلته، وبعضهم يقول إن حليمة نفسها قتلته لأنه خطف ابنها، والشرطة تستّرت عليها.

طرقت باب البيت ذي الخزان الأزرق، وفتحت حليمة، ونظرت إليك، ولم تعرفك، وقلت لها إنك من جمعية خيرية، وأعطيتها ظرفًا، وكان فيه أول مرتّب من وظيفتك الجديدة، كله.

ورفضت، وأصررت، ورفضت مرة أخرى، ثم ظهر يوسف من خلفها، وأمسك بطرف ثوبها، ونظر إليك، وابتسم، ونظرت حليمة إلى ابنها، ثم إليك، ثم أخذت الظرف.

ولم تسألك عن اسمك

ثم، في ليلة من ليالي الجمعة، فعلت شيئًا جعلني، في مكاني الأبيض البعيد، أبتسم

أخذت صحنًا صغيرًا، ووضعت فيه سبع تمرات، وخرجت إلى الشرفة، ووضعته على حافة السور، وقلت، بصوت عالٍ، للّيل:

"هذا للجيران"

ثم دخلت، وأغلقت الباب، ونمت

وفي الليل، حطّت على حافة السور فراشة بيضاء، صغيرة، بجناحين رقيقين كالورق، ومشت حول الصحن، ثم طارت

وفي الصباح، خرجت إلى الشرفة، والصحن فارغ، إلا من شيء واحد

شعرة، طويلة للغاية، أطول من ذراعك، بيضاء كالقطن

وحولها، على الصحن، حلقة سوداء صغيرة، كأثر شيء معدني احترق، كأثر طوق نحاسي ذاب

لا أعرف أين ذهبت سلمى

ربما عادت إلى بيت جدتك القديم، الذي يسكنه الآن غرباء، إلى الجدار الشرقي خلف الياسمين، ربما تبحث عن أمها وإخوتها، ربما تعيش الآن على سطح بيتكم، فوق غرفة أمك، في الضوء الذهبي.

لكنها كانت هناك تلك الليلة، وأخذت التمر، وتركت لك شعرة

ووضعت أنت الشعرة البيضاء في ظرف صغير، ووضعت الظرف في درجك، بجانب علبة زرقاء صغيرة، فيها خاتم

ثم بدأت تكتب، ذات ليلة، بعد الوظيفة الجديدة بأسبوعين، جلست إلى طاولتك وفتحت دفترًا قديمًا من أيام الجامعة، وكتبت في الصفحة الأولى سطرًا واحدًا

"اسمعني جيدًا"

ثم توقفت، ونظرت إلى السطر طويلًا، ولم تعرف من أين جاءت هذه الكلمات، ثم كتبت السطر الثاني، والثالث، وكتبت حتى الفجر

كتبت كل شيء، الحمّام والشعرة المعقودة، بيوت الجيران، السوق، المقبرة، البيت ذو الباب الأزرق، طرطوش، يوسف، الصرّة الخضراء، الطبقات السبع، الخان، وكتبته كما رأيته، بصوتي.

بصوت القرين

لأنك حين حاولت أن تكتبه بصوتك أنت، لم يخرج، كانت الجمل تأتيك ميتة، باردة، كتقرير شرطة، أما حين تركت الكلمات تأتي من خلف أذنك اليسرى، فقد جاءت كالسيل.

ولم تسأل نفسك لماذا

وأنا، من مكاني الأبيض البعيد، كنت أبتسم، لأنك لم تفهم بعد، كل من يكتب كتابًا يحفر في الجدار ثقبًا صغيرًا، وأنت كنت تحفر، كل ليلة، ثقبًا بحجمي تمامًا.



والسوق؟ تسألني عن السوق، عن أبي زريق، عن الأقفاص، عن الدفتر الرمادي

مررت بالمسلخ القديم بعد شهر، بالسيارة، ونظرت إلى البوابة الحديدية الصدئة، الكتابات بالبخاخ الأسود ما زالت هناك، لكنك رأيت، أو ظننت أنك رأيت، أن واحدة منها تغيّرت، أن أحدًا رسم فوقها بالأبيض، خطًّا قطريًا، كشطب.

ولم تتوقف، ولم تنزل، لأنك تعرف الآن ما تعرفه، العالم المرصود أكبر من ملك واحد، وأكبر من دفتر واحد، وأكبر من سوق واحد

أبو زريق ربما مات حين انهارت القاعة، وربما هرب بساق الماعز إلى مدينة أخرى، وفتح دكانًا جديدًا في قناة صرف أخرى، تحت مسلخ آخر، وربما الدفتر الرمادي احترق، أو ربما سقطت منه صفحة واحدة، وطارت.

لا تعرف، ولن تبحث، لكنك وأنت تبتعد بالسيارة، نظرت في المرآة الجانبية، ورأيت، أو ظننت أنك رأيت، عند بوابة المسلخ، في ظلّ الجدار المقشّر، شكلًا ضخمًا مترهلًا ملفوفًا بعباءة بنية.

يقف على ساق واحدة، ساق بحافر مشقوق، ورأسه الصغير كرأس طائر، يدور ببطء، ويتبع سيارتك، ثم مرّت شاحنة بينكما، وحين مرّت، لم يكن هناك أحد.

وضغطت على البنزين، وقرأت، بصوت عالٍ، في السيارة، حتى وصلت إلى البيت

وفي يوم من أيام ذلك الشهر، في السوبرماركت الكبير في الحيّ الجديد، وأنت تقف أمام رفّ الأجبان، رأيت ليلى

بمعطف رمادي، وشعرها البني مربوط بمنديل، لكنه أزرق هذه المرة، وفي عربة التسوق أمامها طفلة في الثالثة، بغمّازة يسرى، تلعب بعلبة بسكويت، ورأتك ليلى، وتجمدت لحظة.

وانتظرت أنت، انتظرت أن ترى الخوف في عينيها، الخوف الذي رأيته في الحديقة قبل تسع سنوات، حين نظرت إلى ما فوق كتفك وصرخت، ونظرت إلى ما فوق كتفك.

ولم ترَ شيئًا، ثم عادت تنظر إليك، ورأيت في وجهها حيرة من يحاول أن يتذكر لماذا كان يخاف من شيء، ولا يجد السبب، ثم ابتسمت، ابتسامة مهذبة، بعيدة، ابتسامة امرأة لجار قديم.

"أهلًا، كيف حالك؟"

"بخير، الحمد لله، وأنتِ؟"

"الحمد لله"

وأشارت إلى الطفلة، "هذه سارة" وابتسمت لسارة، ولوّحت لك سارة بعلبة البسكويت، ثم مضت ليلى بعربتها، ولم تلتفت، ووقفت أنت أمام رفّ الأجبان طويلًا، ثم أخذت قطعة جبنة بيضاء، ومضيت أيضًا.

ولم تلتفت

وأنا؟

كنت أراقبك، كل يوم، من مكاني الأبيض، وكنت أتعلم شيئًا جديدًا، شيئًا لم أعرفه في عمري كله

كنت أتعلم كيف أكون قرينًا

قرينًا فقط، بلا عمل، بلا عقد، بلا صرّة حمراء، بلا ملك أعطيه الوعود، قرينًا، كما خُلقت

وكان ذلك أصعب مما ظننت، لأن القرين، يا صاحبي، لا يرحل

وكان المكان الأبيض يضيق، كل يوم، يضيق قليلًا، ويقترب منك

القرين

مرّت ثلاثة أشهر، وجاء الشتاء، والمدينة من فوق، من حيث أراها الآن، تغيّرت أيضًا ما زالت بحرًا من الظلام، ما زال فيها ساكنون في الغرف المهجورة، وخيوط تخرج من المقابر، وأقفاص في أسواق تحت المسالخ، العالم المرصود لم يمت، لن يموت ما دام في المدينة إنسان ينسى الاسم قبل أن ينام.

لكن النقاط الذهبية، صارت أكثر، قليلًا

نقطة في الطابق الرابع من العمارة المجاورة، حيث تقرأ الحاجة أم فاروق في غرفة ابنها المسافر، ونقطة في الطابق الأول من البناية المقابلة، حيث ورقة بخط طفل ملصقة فوق سرير، ونقطة في حيّ المدابغ، في بيت من غرفتين فوقه خزان أزرق، ونقطة كبيرة جدًا، في الحيّ القديم، خلف باب أزرق، تحت لوح محفور مستقيم.

ونقطة على شرفة في الطابق الثاني، حيث امرأة بشعر قصير تشرب الشاي مع زوجها كل مساء، المطر يضرب النوافذ منذ المغرب، والريح تصفّر في فتحات النوافذ الحديدية القديمة، وأنابيب المياه في الجدران تئنّ من البرد، والبيت نائم، أبوك يشخر في غرفته، ثم يتوقف، ويدخل في النوم العميق.

أمك نائمة على جنبها الأيمن، وقد قرأت شيئًا قبل أن تنام، أحسّ به يحيط بغرفتها كسور رقيق، وغرفتك تغيّرت

على الجدار فوق سريرك، لوح صغير محفور فيه آية، علّقته بنفسك قبل شهرين، مستقيم، وعلى الطاولة بجانب السرير، مصحف صغير بغلاف أخضر، وعلى النافذة، ستارة جديدة، زرقاء، وفي الدرج، علبة زرقاء صغيرة فيها خاتم، وظرف فيه شعرة بيضاء طويلة.

والغرفة، حين أنظر إليها من الخارج، من حيث أنا الآن، تلمع، خافتًا، ذهبيًا

أضعف من غرفة أمك، ومن غرفة آمنة، ومن قبر جدتك، لكنه هناك، ضوء صغير، كشمعة في نافذة بعيدة في ليلة شتاء

وأنت نائم، على جنبك الأيمن، كأمك، وتتنفس بهدوء

وأنا أقترب

لا أستطيع ألّا أقترب

قلت لك، القرين لا يرحل، المكان الأبيض الذي كنت فيه، كان يضيق كل يوم، ويدفعني نحوك، كما يدفع التيار قاربًا صغيرًا نحو الشاطئ الذي انطلق منه، لا أملك أن أقاومه، هكذا خُلقت، وُلدتُ معك، وسأبقى معك، حتى تموت.

انتهى العمل والعقد والسحر، وبقيتُ أنا فقط

وأدخل الغرفة

يحرقني الضوء الذهبي، لكن قليلًا، أقل مما كان يحرقني في غرفة جدتك، أقل بكثير مما أحرقني في الخان، وأفهم لماذا، لأن الضوء الذي حول غرفتك، ضوء جديد، صغير، هشّ، ما زال يتعلم كيف يكون ضوءًا.

ومثله، أنا

وأقف عند سريرك

وأنظر إليك

وجهك هادئ، التجاعيد الصغيرة بين حاجبيك، التي كانت هناك منذ كنت في الثانية عشرة، اختفت تقريبًا، وشعرك نما فوق جبهتك، حيث انتزعت الشعرة، وعلى سبابة يدك اليمنى، الممدودة على الوسادة، البقعة السوداء الصغيرة، بحجم حبة العدس.

ما زالت هناك

أنا أعرف ما هي، لكنك لا تعرف

إنها أثر مني

حين لمست المسمار في المقبرة، واحترقت يدك، وصعد الأثر الأسود حتى كتفك، كان ذلك أنا، كنت أدخل فيك، كنت أصير أنت، هكذا كان سيحدث العقد، هكذا يصير الساحر ساحرًا، القرين يدخل فيه، حتى لا يبقى فرق.

وحين قلت الاسم في الخان، خرجت، كلّي، إلا هذه

حبة عدس سوداء، على طرف إصبعك

باب صغير

والساعة، انظر إلى الساعة على الحائط، ذات العقارب الفوسفورية التي تلمع في الظلام

الثالثة إلا خمس دقائق

أنحني

أقترب من وجهك، من أذنك

أذنك اليسرى

وأهمس:

"صاحبي"

وتفتح عينيك

فتحت عينيك فقط، بلا قفزة ولا صراخ، ونظرت إلى السقف، وأعرف أنك سمعت

وأعرف أنك تشعر الآن بتلك البرودة، خلف أذنك اليسرى تمامًا، في تلك المسافة الصغيرة، البرودة التي كنت تظنها تيار هواء من نافذة لم تُغلق جيدًا.

"أعرف أنك هنا،" تقول

بصوت هادئ، لا خوف فيه

"نعم،" أقول

صمت، المطر على النافذة

"ماذا تريد؟"

أفكر، لأول مرة، أفكر قبل أن أجيبك، لأنني لم أعد مجبرًا على أن أقول شيئًا، لا عمل يأمرني، لا ملك ينتظرني، لا عقد، أستطيع أن أختار ما أقول.

"لا شيء،" أقول، "أنا هنا فقط، أنا قرينك، هذا مكاني"

"هل ستكلّمني كل ليلة؟"

"نعم"

"هل ستقول لي اترك الصلاة؟ اكذب على أمك؟ انظر إلى ما ليس لك؟"

"نعم"

"لماذا؟"

"لأن هذا ما يفعله القرين، هذه طبيعتي، كما أن طبيعتك أن تسمع، ثم تختار"

"والكتاب؟" تسأل بعد لحظة

"أيّ كتاب؟"

"الذي أكتبه، أنت الذي تكتبه، أليس كذلك؟"

أسكت قليلًا

"نحن نكتبه"

"ولماذا؟"

"لأن أحدًا ما، في مكان ما، سيقرؤه، في غرفة خافتة الضوء، في ساعة متأخرة، وسيشعر بالبرودة خلف أذنه، وسيعرف أخيرًا ما هي"

"ثم ماذا؟"

"وبعدين، سيختار، كما اخترت أنت"

"وسلمى؟" تسأل

"لا أعرف أين هي، لكنها تأخذ التمر كل ليلة جمعة، رأيتها"

"وأنت، أين كنت طوال هذه المدة؟"

"في مكان أبيض، كنت أتعلم"

"نتعلم ماذا؟"

أسكت طويلًا هذه المرة

"أن أقول كلمة لم أقلها في حياتي"

"وما هي؟"

"شكرًا"

"على ماذا؟"

"على أنك قلت لي صاحبي، حين كنت أستطيع أن أكون أي شيء آخر"

صمت طويل، ثم تبتسم، في الظلام، أراها

"حسنًا،" تقول

ثم تجمع كفّيك أمام فمك

همسة

نفخة

مسحة

وتبتعد البرودة عن أذنك

أبتعد

خطوة، خطوتين، إلى زاوية الغرفة، إلى حافة الضوء الذهبي الصغير، أقف هناك، وأحترق قليلًا، وأنتظر

وتغمض عينيك، وتنام

وأنا أعرف أنني سأعود غدًا، وبعد غد، وكل ليلة، وأعرف أنك ستجمع كفّيك، وتهمس، وتنفخ، وتمسح، وأنني سأبتعد، ثم أعود

وفي المكان الأبيض، سمعت شيئًا، لا أعرف من قاله، ربما سلمى، ربما ملَك يمرّ، ربما صدى من صلاة أمك يصعد من الأسفل، سمعت أن خير خلق الله، هو أيضًا، كان له قرين.

مثلي، وُلد معه، ولازمه، وهمس له، لكن الله أعانه عليه، فأسلم، فلم يعد يأمره إلا بخير



لا أعرف ما معنى هذا

لا أعرف إن كان ممكنًا لقرين مثلي، قرين كان خادم عمل عشرين سنة، وأكل رأس صاحبه كل خميس، وباع جنية مؤمنة لساحر، وكاد يسلّم طفلًا للذبح، لا أعرف إن كان ممكنًا لمثلي أن —

لا أعرف

لكنني أفكر فيه، كل ليلة، وأنا واقف في زاوية غرفتك، على حافة الضوء الذهبي الصغير، أحترق، وأنتظر

هكذا ستكون حياتنا معًا، حتى تموت

وهذا، يا صاحبي، أجمل ما رأيته في حياتي، وأقبحه

والآن

أنت

أقصد، أنت الآخر

أنت الذي تمسك هذا الكتاب الآن

أعرف أنك هنا، أعرف أنك وصلت إلى الصفحة الأخيرة، أعرف أنك قرأت كل شيء، الحمّام، السوق، المقبرة، الخان، أعرف أن الضوء في غرفتك خافت، وأن الساعة تقترب من وقت لا تحب أن تنظر إليه.

وأعرف أنك نسيت شيئًا

في أول الكتاب، في الصفحات الأولى، قلت لك إن هناك شيئًا في الممر خلفك، شيئًا جاء مع الكتاب، شيئًا ينتظر

هل تذكر؟

وقلت لك إنك إن جئت معي في الرحلة، ربما أعلّمك في الطريق كيف تتخلص منه

وقد علّمتك

هل انتبهت؟

علّمتك ما علّمته جدّة لحفيدها في ليلتها الأخيرة، شيئًا أبسط من أي تعويذة أو خاتم أو كلمة سرّ، إذا نسيت كل شيء، تذكّر صوت أمك.

همسة، نفخة، مسحة

لكنني لا أعرف إن كنت تتذكره

لا أعرف إن كانت أمك قرأت عليك وأنت صغير، لا أعرف إن كانت جدتك أذّنت في أذنك يوم ولدت، لا أعرف إن كنت تحفظ الكلمات، أم نسيتها كما نسيها صاحبي.

لا أعرف إن كانت غرفتك تلمع

ولا أعرف

إن كنت ستلتفت الآن

إلى الممر

لأنه، يا صديقي، يا من قرأت حتى هنا

لم يعد في الممر

أشعر به

خلف أذنك اليسرى تمامًا

في تلك المسافة الصغيرة، حيث تحسّ الآن ببرودة مفاجئة

وتظنها تيار هواء، من نافذة لم تُغلق جيدًا

اجمع كفّيك

الآن

تمّت